وأهل بخارى، قد تعرضوا الى نهب لم يدَعْ لهم شيئاً. وطبقاً لعبد الرزاق السمرقندي ومسعود الكوخستاني، فقد نهب الأوزبك الرحل جميع الأملاك والبساتين التابعة للقصر الامبراطوري حول المدن، وقصور المقربين له وخربوها، بما في ذلك مقر أولوغ بك «تشين خان» (دار الصين ـ المترجم) الذي عرف بذلك الاسم نظراً لاكتساء جدرانه بالخزف الوارد من الصين. وتشير مواضع من سيرة حياة أبي الخير خان، الى أن أهل سمرقند، في سبيل فك حصارهم، دفعوا الفديات، وقدموا الهدايا الثمينة (بيشكس وسافورين) المرسلة من حاكم المدينة، الأمير جلال الدين بايزيد، ويستطرد المؤلف نفسه: أعلن وجهاء (أرسطقراطيو) سمرقند، في وقت تقديم الهدايا للخان، أن ميرزا أولوغ بك حريص على الاحتفاظ بالعلاقات الودية مع الخان، ويرعى شروط التحالف والخضوع». إلا أنه يعتقد أن تقرير مسعود الكوخستاني، متحامل وكاذب: إذ لا يعقل أن السمرقنديين، بما هم عليه من التسلح الجيد، ما لم يكن للأوزبك الرحل، وهم وراء الأسوار المنيعة لمدينتهم الحصينة، يرضون لأنفسهم هذه المهانة. ويؤيد هذا الرأي المؤلفون الآخرون مثل عبد الرزاق السمرقندي وميرخوند وخوندير. ويتضح، كما أشار الى ذلك بارتولد، أن الأوزبك الرحل، نهبوا الضواحي من سمرقند وبخارى دون غيرها، وارتحلو بدون تلقي هدايا من سكان الحواضر، وبدون الحصول على أسلاب قيمة.

ونجح أولوغ بك، بمشقة بالغة، في تحقيق استقرار الأوضاع الداخلية في بلاد ما وراء النهر. وبعد ذلك سيطرت عليه الرغبة في الاستيلاء على خراسان. وقد اعتزم التوجه اليها، مباشرة، عند قدوم ربيع عام ١٤٤٩م، بيد أنه في هذه المرة، تحتم عليه أن يخوض الصراع ضد ابنه عبد اللطيف، الذي ناوأه، وعقد تحالفاً مع أبي القاسم بابور، وزوّده بمعلومات وافية عن تجهيزات أبيه الضخمة. ثم إنه تعهد له بعدم تمكين أولوغ بك من العبور خلال أملاكه.

انتهى هجوم أولوغ بك ضد عبد اللطيف نهاية غير موفقة، إذ تعرض في بداية شهر شعبان ٨٥٣ هـ (١٩ سبتمبر ١٤٤٩م)، للهزيمة من جانب ابنه، بالقرب من قرية دمشق، حول سمرقند. وحينذاك لم يسمح له بدخول سمرقند، كما لم يتمكن

وفي منتصف شهر رمضان المبارك من عام ٨٥٢ هـ (أوائل نوفمبر ١٤٤٨م)، ثار على أولوغ بك عدد من الأمراء الخراسانيين، الغاضبين منه، يترأسهم حاكم جيرات السابق، أبو سعيد، وأمير التاج التركماني يار علي بن اسكندر القاراكيونيلي، الذي عمل مع أولوغ بك منذ عام ٨٣٥ هـ (١٤٣٢م) وحتى إيداعه السجن في حصن ينريتو، وصار أولوغ بك مضطراً لأن يتّجه بجيشه الى جيرات، ويترك عبد اللطيف في نيسابور، ونجح آنذاك في قمع ذلك التمرد. إلا أن الأنباء المزعجة التي وردت من وراء النهر، جعلت أولوغ بك يترك خراسان قاصداً سمرقند، في أواخر أيام شهر رمضان ٨٥٢ هـ (أواخر نوفمبر ١٤٤٨م)، مصطحباً معه رفات والده، وأموال الخزينة، وما إليها من الثروات التي ورثها من شاه روح وخلفها علاء الدؤلي. ولكن، وفي مكان ما بالقرب من ميرڤ، انقضّت عليه قوات الأمير هندوك، التي بعث بها أبو القاسم بابور، من مشهد، وأحاطت به حيث جرح جراحاً بالغة، وسقطت في أيدي هذه القوات غنائم كثيرة. فقد أولوغ بك جميع خيله، تقريباً، ثم إن هندوك طارده حتى ضفة أموداريا. وفي أثناء اجتياز أولوغ بك النهر، عند ميرڤ، تعرض لهجوم مباغت من الأوزبك الرحّل، حيث قتل الكثير من قواته العابرة وتشتت ما بقي منها، وآلت الى الأوزبك خيرات كثيرة، وأعداد غفيرة من الأسرى. وبمشقة بالغة، نجحت قوات أولوغ بك المشتتة في الوصول الى بخارى، حيث اتخذت مواقعها لقضاء فصل الشتاء.

وكانت تلك الوقائع، التي جرت خلال الأيام الأخيرة من شهر رمضان ٨٥٢ هـ (أواخر نوفمبر ١٤٤٨م)، هي السبب الحقيقي وراء تعجل أولوغ بك في العودة من خراسان. وكما هو معلوم، استولى عبد اللطيف، في خريف عام ٨٥٠ هـ (١٤٤٦م)، على سيجناك، واستقر فيها لقضاء فصل الشتاء. وكما يروي صاحب «تاريخ أبي الخيرخان»، فإن أبا الخير خان قد علم بوفاة شاه روح، ورحيل أولوغ بك من بلاد ما وراء النهر، في خريف ٨٥٠ هـ، فأبدل بالترحال الإقامة، وعسكر، صيفاً في ياي لاو.

ونجح في التقدم نحو سمرقند، حيث وصل الأوزبك الرحّل الى أبواب المدينة وطوقوها من جميع الجهات. ويروي البعض أن أهل سمرقند، القوية الحصينة،

وخراسان، والحملات العسكرية غير الموفقة، وتخلي القوات المسلحة عنه، خصوصاً قياداتها العليا، التي يرضيها القائد الحربي القادر على إحراز النصر تلو النصر، ومن ثم امدادها بالغنائم والأسلاب، أما في حال فشل الحروب، فإن المحاربين عادة ما ينقضّون على قياداتهم العليا. وذلك ما حدث في أحيان كثيرة، فمثلاً، حين تعرض أبو الخير خان للهزيمة من جانب الكماك، بالقرب من سيجناك، عام ٨٦١ هـ (١٤٥٧م)، وأيضاً عندما استولى زاهد الدين محمد بابور على سمرقند عام ١٥٠٠م، انفضّ كثيرون من حول شيعيان خان المنهزم، في موقع خوجة ديدار، بالقرب من سمرقند. ويورد محمد حيدر، في هذا الصدد، إفادة جيدة: عندما خسر الخان المغولستاني، يونس خان، معركته ضد إسان بوغا خان (١٤٢٨ ـ ١٤٦٢م)، واتخذ وجهته الى طشقند، تخلى عنه أفراد الكتيبة المرافقة له، ثم قبض عليه أمراؤه، وسلموه الى الحاكم التيموري، شيخ جمال.

وهذا أيضاً ما حدث مع أولوغ بك، فعندما قام ابنه ضده، على ضفة أموداريا، اعتزم أمراؤه أن يقبضوا عليه ويسلموه الى عبد اللطيف، في حين منع حاكم سمرقند، كلاً من ميران شاه كاأوتشن، وحاكم شاه روح، ابراهيم بن قولاد، من دخول مدينته.

ونضيف أنه، في تلك الأيام، تزامن قيام أبو سعيد، حفيد ميران شاه، تسانده القبيلة التركية القومية أرغبين، وشيوخ الطريقة النقشبندية، لمواجهة أولوغ بك.

الوضع السياسي في بلاد ما وراء النهر خلال النصف الثاني من القرن الخامس عشر

خلّفت ولاية عبد اللطيف، والتي لم تدم سوى ستة أشهر (٢٥ أكتوبر الى ٩ مايو ١٤٥٠م)، أثراً ملحوظاً في تقوية الروح الاسلامية في الحياة الاجتماعية والسياسية للبلاد. وقد كان سيد بادي شاه، كما يطالعنا ميرخوند، «منقاداً لأولياء الله، وكان خلال مقابلاته ومناقشاته معهم، يتزلف اليهم بشتّى السبل».

وقد تمكن عبد اللطيف من اقامة نظام صارم في البلاد، فقمع بيد من حديد حركات العصيان، ودعم حدود الدولة، وتخلص ممن أمكنه من المعارضين: أصدر أمراً باعدام شقيقه ميرزا عبد العزيز، بعد ثلاثة أيام من مصرع أبيه أولوغ بك،

من دخول شاه روح. وبعد ذلك، كما أورد الكوخستاني ودولت شاه، فكر أولوغ بك في التقدم الى داشت كيبتشك لطلب مساندة أبي الخير خان، إلا أنه عدل عن هذه الفكرة، وقرر في النهاية العودة الى سمرقند، واثقاً من أن الإبن لا بد من أن يبقى على طاعة ابيه. وقد عقد العزم على أن يتنازل عن السلطة الى عبد اللطيف، ويوقف بقية حياته على عبادة الله والاشتغال بالعلم.

وتشير المراجع، بعد ذلك، الى أن أولوغ بك التقى بأبي الخيرخان، دون أن يحصل على تأييده، وقد عاد الى سمرقند. وللأسف، كان خطأ أولوغ بك فادحاً في حساباته كلها. فقد تلقى عبد اللطيف أباه بفتور، وسمح له بالرحيل إلى مكة. ثم انه، وبمعاونة الأمراء المعارضين لأولوغ بك، والجناح العسكري لرجال الدين، دبر مؤامرة لقتله. ويروي عبد الرزاق السمرقندي أن عبد اللطيف جمع كل الشخصيات الساخطة على أبيه، وبعث بهم الى الخان التشنجيزي المزيف (المدعو موغلوك) طالباً اليهم أن يسألوه الاذن بالقيام باغتيال الميرزا. وقد وفق واحد منهم يدعى عباس، من قبيلة سولدوس، في الحصول على موافقة الخان. وبعد انقضاء ثلاثة أيام على قتل الأب، أعدم عبد اللطيف شقيقه عبد العزيز، وجميع الأمراء المقربين الى أولوغ بك: محمد طرخان وسلطان جونايدي واسماعيل صوفي طرخان وسلطان شاه، وكثيرين غيرهم.

وطبقاً لمعلومات ميرخوند، فإن اغتيال أولوغ بك، تلك الجريمة البشعة، قد حدث بالقرب من سمرقند. وبحسب رواية دولت شاه، في الثامن من شهر رمضان ٨٥٣هـ (٢٥ أكتوبر ١٤٤٩م)، على ضفة نهر أبي سوج (سابوخ)، غير بعيد من سمرقند. ويشير الى ذلك عدد آخر من المراجع. ولا يعرف على وجه التحديد أين كان يجري نهرأبي سوج، إلا أن دولت شاه يحدد مجراه بالقرب من سمرقند.

ما هوالسبب الحقيقي لتلك النهاية المأساوية لأولوغ بك العظيم، ذلك العالم والبادي شاه. يرجح أن أسباب ذلك تتلخص في تزايد تدهور الأوضاع الداخلية بتأثير الخلافات والصراعات الداخلية المستمرة بين الاقطاعيين، والخصومات بين خيرة العاملين في الدولة، اضافة الى انقضاض وجهاء الاقطاعيين، في ما وراء النهر

والهرب والاختفاء في بخارى. وكان فيها كثير من أنصاره المخلصين، خصوصاً بين رجال الدين المسلمين، من اتباع الحاج محمد جيرس (المتوفى عام ١٤١٩م) وخوفاً من غضب عبد اللطيف، وضعه رهن الاعتقال. بيد أن القدر كان رحيما بالسلطان أبي سعيد، وكتبت له الحياة هذه المرة أيضاً، ثم إنه، وبمجرد وصول نبأ مصرع عبد اللطيف إلى بخارى، حرره من الاعتقال، فوراً، وبايعه وجهاء بخارى، وعقد له لواء الحكم. وبعد ذلك سار أبو سعيد الى سمرقند، ولكنه هزم أمام ميرزا عبد الله، ففرّ شمالاً. وطبقاً لشهادة عبد الرزاق السمرقندي، تمكن من الاحتماء في ياسا (تركستان)، المدينة الحدودية الشمالية لدولة التيموريين. وفي شتاء عام ٨٥٤ هـ (٥٠ ـ ١٤٥١م) بعث ميرزا عبد الله بجيش ضده، هزمه أبو سعيد على مشارف ياسا. فتوجه اليه مرزا عبد الله بشخصه، إلا أنه لم يتجاوز شاه روح حتى علم بأن أبا سعيد عقد تحالفاً مع أبي الخيرخان (١٤٢٨ ـ ١٤٦٨م)، رأس حكومة الأوزبك الرحل. وأورد فخر الدين علي حسين الواعظي الكاشفي، المشهور بالأسافي (١٤٦٣ ـ ١٥٣٣م)، مؤلف السيرة الذاتية المشهورة «رشحات عين الحياة»، وكذلك مسعود بن عثمان الكوخستاني، صاحب «سيرة أبي الخيرخان»، أن أبا سعيد سافر بناء على مشورة الحاج عبد الله أحرار (١٤٠٤ ـ ١٤٩٠م) ومناصرته، الى أبي الخيرخان، حيث التقاه في موقع بالقرب من طشقند، ومن ثم سارا لملاقاة ميرزا عبد الله، الذي غادر شاه روح، حينما علم بذلك، وحث الخطى باتجاه سمرقند. ودارت رحى الحرب بينه وبين الاتحاديين في ١٠ يونيو، وفي قول آخر، ٢١ يونيو ١٤٥١م، على ضفاف نهر بولونجور، في الاقليم الشيرازي من سمرقند، وحسم الأمر بانتصار أبي سعيد وحليفه، ومصرع عبد الله، في هذه الحرب. ودخل السلطان أبو سعيد سمرقند بدون مقاومة، وبعث الى أبي الخيرخان، الذي بقي مرابطاً في خان جيل، هدايا قيمة، كان أغلاها رابية سلطان بيجيم[٢٦]، ابنة المرحوم ميرزا أولوغ بك.

---

٢٦ ـ تزوجها أبو الخيرخان، ورزق منها: سيونس حاج، وكتشوكونش، وقد حكم الأول طشقند وتركستان، على عهد شيباني خان ثم بعده (توفي عام ١٥٢٥م). وصار الثاني قائداً أعلى لجميع الأوزبك خلال الفترة من العام ١٥١٠ الى عام ١٥٣٠م.

وأودع السجن كلا من ميرزا عبد الله والسلطان أبي سعيد.

هكذا، وكما افترض عبد اللطيف، فقد أصبح بإمكانه فرض سيادته، ولسنوات طويلة، على البلاد دون مناوأة. بيد أنه لم يقدَّر لحلمه أن يتحقق، حيث لقي مصرعه، بدوره، على يد متآمر، في صباح التاسع من مايو عام ١٤٥٠م، حال توجهه من حديقة باغ ميدان الى بستان باغ شيناء الواقع جنوب سمرقند.

وبعد ذلك اتجه المتآمرون الى سجن كوك سراي، حيث أطلقوا سراح ميرزا عبد الله، ابن شقيق أولوغ بك، وأجلسوه على عرشه.

وقد استهل ميرزا عبد الله ولايته بتوزيع جزء كبير من ثروات الخزينة على قواد الجيش والأمراء، كما كان المسلك المفضل، عادة، للحكام في بداية عهدهم، لتدعيم مراكزهم. إلا أنه، وبالرغم من ذلك، تحتّم عليه أن يخوض صراعاً جاداً ضد علاء الدؤلي وسلطان أبي سعيد، اللذين نازعاه أمر السلطة والحكم في ما وراء النهر. وفي حين تكلل صراعه ضد علاء الدؤلي بالنصر، فقد عانى الهزيمة أمام أبي سعيد.

وقد كان السلطان أبو سعيد من أبرز الشخصيات بين التيموريّة، بعد شاه روح وأولوغ بك. كان انساناً نشطاً، ذا موهبة عسكرية وقيادية، وكان أولوغ بك ضمن خاصته، في أثناء صراعه ضد عبد اللطيف، في الفترة من أغسطس الى سبتمبر ١٤٤٩م، على ضفاف أموداريا. وعندما تزايد تدهور الروح المعنوية للمحاربين والأمراء، واستشرى الفزع بينهم، انتهز أبو سعيد لحظة مناسبة، وفي احدى الليالي غادر موقع مولاه، فاراً بصحبة فرقة من المحاربين وعشيرته من القوات الأرغبينية، متوجهاً إلى سمرقند. وحين وصل العاصمة، حاصرها، ولكنه لم ينجح في اقتحامها. واضطر، في النهاية الى رفع حصاره، تحت ضغط ما أرسله أولوغ بك من قوات، لصده، ثم فر الى أرجنين (في منطقة زآمين). وعجز عن ايجاد مكان للتخفي، وسرعان ما سقط في ايدي رجال عبد اللطيف، واقتيد الى سمرقند حيث قرر عبد اللطيف حبسه في سجن كوك سراي. ثم إنه نجح في الفرار من سجنه،

والأمير خليل حاكم سيستان، وشيخ حسن حاكم خابو شان، والتركمانيين من آل آق كايونيل. وغيرهم.

وكما هو معلوم، فإن مرزا محمد جوكي ومرزا أحمد، ابني عبد اللطيف، اللذين حكما، في حياة أبيهما، ومن بعده، اقليم بلخ، قد شقا عصا الطاعة على أبي سعيد، ووقفا ضده وحارباه. وقد كان نشاط هذين الأميرين من الجدية، بحيث أضطر أبو سعيد الى ترك جيرات والمسير للتصدي لهما بنفسه. وهنا لم يتمكن وليا العهد من الوقوف ضد قوى أبي سعيد الجبارة، فانهزما. وقتل ميرزا أحمد، وفر أخوه محمد جوكي هارباً الى جيرات، حيث وفق هناك في الانضمام الى ميرزا ابراهيم، ابن علاء الدؤلي، الذي استولى، بعد مغادرة أبي سعيد، على عاصمة خراسان. (٢٨) بيد أن وضع مرزا ابراهيم لم يكن قوياً بما فيه الكافية، وبعد وقت غادر محمد جوكي، جيرات، وتوجه نحو دشت كيبتشك حيث أبو الخير خان. وقد جاء في تاريخ أبي الخيرخان، أن الخان الأوزبكي، استقبل صهره (قريب زوجة رابية سلطان بيجيم) بحفاوة، ووعده بالمساندة في صراعه لنيل عرش أولوغ بك.

سنحت الظروف المناسبة، لمحمد جوكي، عام ١٤٦٠م، بمواصلة الصراع ضد أبي سعيد بنجاح. في ذلك العام، قام الأمير خليل، حاكم سبستان، ضد السلطان، في الوقت نفسه الذي اقتحم فيه السلطان حسين باي قارا، المتربص حينذاك في مازندران، حدود خراسان، وغزا كل أقاليمها حتى سابزفار ونيسابور، ولذلك كان أبو سعيد مضطراً الى تحريك قواته الأساسية للتصدي له. وقد استغل هذا الوضع محمود جوكي. وبدعم من فرق الأوزبك الرحّل بقيادة بوركا سلطان وبشكاوي أوغلان، قام باحتلال مدن ياسا وسايرام وطشقند وأساكا وشاه روح. ومن الأحداث التي تستحق الذكر، أنه في شاه روح تحول لمناصرة محمد جوكي، أولئك الأمراء الذين ظلوا حتى ذلك الحين في خدمة أبي سعيد، وطبقاً لرواية مؤلف تاريخ

---

٢٨ ـ كان السلطان أبو سعيد، في بالخ حتى ربيع ١٤٥٨م، ثم سقطت جيرات في اكتوبر عام ١٤٥٧م في يد جاهان قاراكايونيلي. وثبت الأمر لأبي سعيد في جيرات، نهائياً بدءاً من ١٦ ديسمبر عام ١٤٥٨م.

وقد حكم أبو سعيد بلاد ما وراء النهر خلال أكثر من ست سنوات، حتى عام ١٤٥٧م. لم تسجل أحداث جسام في اثناء تلك الفترة، خلاف الغارات على بلاد ما وراء النهر، وحصار سمرقند من قبل أبي القاسم بابور (١٤٤٣ - ١٤٥٧م)، وعصيان أوترار عام ١٥٥٥م. وظلت العاصمة، وبلاد ما وراء النهر، في ذلك الحين، هادئة مستقرة مزدهرة، بفضل جهود الحاج عبيد الله أحرار، وصهره مير عبد الأول (توفي عام ١٥٠٣م) اللذين قادا الجماهير والجيش، في الدفاع عن سمرقند. وطبقاً للتحليلات الحديثة، سافر الحاج أحرار بنفسه، حينذاك، إلى مكان تمركز قوات أبي القاسم بابور، حيث نجح في اقناعه بعدم جدوى الحصار والحرب، وامتثل لنصحه فسحب قواته، ورجع الى بلده خراسان.

وبعد موت أبي القاسم بابور (٢١ مارس ١٤٥٧م)، استغل أبو سعيد تدهور الأوضاع في خراسان وانقسامها نتيجة لصراع علاء الدؤلي والسلطان محمد، فتوجه اليها في الثاني من شهر أكتوبر ١٤٥٧م، حيث استولى على جيرات، بدون مجهود يذكر.

وقبل مسيرته الى خراسان، قسم أبو سعيد مناطق نفوذه، من الأراضي الواقعة بين نهري سرداريا وأمودايا، بين أبنائه. فاقتطع عمر الشيخ فرغانة ومركزها أنديجان، وولي السلطان أحمد الحكم على سمرقند وبخارى. أما خيسار وخوتالان وتشاغانيان فقد جعل مقاليد أمور السلطة فيها لابنه السلطان محمود[٢٧].

وعلى كل حال، وباختصار، فإن عهد حكم أبي سعيد وكذلك خلفائه من بعده، في بلاد ما وراء النهر، لم تكن مستقرة. فأبو سعيد مثلاً، كان محتماً عليه مواصلة الصراع في خراسان، بالاضافة الى معارضته لعلاء الدؤلي، وابنه ميرزا محمود، والسلطان محمد، وللحكام المحليين المنشقين: أحمد ياسول، قائد حصن اختيار الدين، والأمير عبد الله حاكم سراخس، والأمير بيراق مغول قائد حصن نيرات.

---

٢٧ - مؤخراً، وفي بداية الستينات من القرن الخامس عشر، انتقل السلطان محمود الى جورجان ومازاندران. ثم بعد موت والده (١٤٦٩م)، يُرجّح أنه عاد الى جوتشي.

ويكتب مؤلف تاريخ أبي الخيرخان، أن بعض المراكز في بلاد ما وراء النهر قد عانت كثيراً من جراء ذلك، وبلغ نهب السكان الآمنين حداً فظيعاً، جعل محمد جوكي يتخذ أقصى العقوبات لإيقافه.

وقد قام السلطان أبو سعيد، عندما وصلت أخبار ما وراء النهر المزعجة، بارسال جيش في السابع عشر من شهر يناير عام ١٤٦١م، بإمرة الأمير معز الدين شيرازي. وبعد مرور حوالي شهرين، توجه بنفسه الى هناك، مصطحباً قوات عظيمة. وإذ نُمي ذلك الى محمد جوكي، عقد في كوفن[٢٩] اجتماعاً مع الأمراء وقواد الجيوش، من قواته ومن الأوزبك الرحّل. وهنا تفجرت بينهم خلافات حادة، حول كيفية مواجهة الموقف، وتجهيز خطط المقاومة ضد معز الدين شيرازي وأبي سعيد. فقد ارتأى، مثلاً، يوركا سلطان وبشكاوي أوغلان، والأمراء الأزابكة الآخرون الأخذَ بخطة الهجوم، والمبادرة باحتلال ضفاف أمودريا، لقطع الطريق أمام تحرك قوات أبي سعيد. وقد وافق على هذا الرأي جمع من الأمراء التشاغاتيين، بينهم محمد جوكي نفسه. أما القسم الأكبر من الأمراء التشاغاتيين، وعلى رأسهم نور سعيد بك والسلطان أرغين، فقد تحمس لخطة عمل أخرى، تقضي بالتمركز على طريق المسيرة المنتظرة الى الشمال، والتحصّن وراء أسوار شاه روح المنيعة، وبرروا خطتهم هذه، كما ورد في «تاريخ أبي الخير خان»، بأنه على الرغم من أن أبا سعيد، قد يدخل سمرقند، إلا أن بعض أمرائه سينقلبون عليه، وينحازون الى صفهم، وحينئذ ستكون لهم الغلبة، فيتمكنون من إنزال ضربة قاصمة، تكون فيها نهاية أبي سعيد إلى الأبد. وفي نهاية المطاف، سادت وجهة نظر أصحاب الخطة الثانية. وبناء عليه، غادر جيش التشاغاتيين معسكراتهم. ودون نظام، بدأ الزحف شمالاً نحو ضفاف سرداريا. وطبقاً لرواية عبد الرزاق السمرقندي، فقد أغضب الأوزبك الرحل رفض خطتهم. فتركوا مواقعهم، وقاموا بموجة من غارات النهب والسطو على القرى

---

(٢٩)- كوفن - قرية من أعمال كرمن.

أبي الخيرخان، كان من بينهم أناس من ذوي المكانة مثل الأمير نور سعيد بك من بلكوت، القبيلة التركية المعروفة، وسلطان أرغبين. وبالاضافة إلى هؤلاء، انضم اليه كذلك البكوات التشاغاتيون الذين خدموا قبلاً مع أولوغ بك، ثم اعتزلوا الصراع بعد موته الدرامي، فلم يقفوا ضد عبد اللطيف أو ضد ميرزا عبد الله، ولكن ظلوا على استقلالهم داخل مقاطعاتهم. وكان أكثرهم تأثيراً نور سعيد بك، الذي كان وقتها في الجبال، قرب القرية البخارية نور (حاليا: نور آتا)، وكان يغير بانتظام، خلال عام ١٤٦٠م، على القرى الواقعة حول بخارى وسمرقند. ولم تسفر محاولات أبي سعيد، في اصلاح الأمور معه بالطرق السلمية، عن أي نجاح. فلم يرضخ هذا المعارض المنشق، كما كتب بارتولد، لنصائح سفراء أبي سعيد ولا لموفدي الحاج أحرار، الذي ظل متحصناً في مركزه بالقرب من نور آتا. بيد أن جيوش سمرقند تمكنت بعد ذلك بوقت، من طرده من نور آتا، ففرّ إلى الصحراء.

ويبدو أنّ السلطان أبا سعيد، كما يتضح من سير الأحداث بعد ذلك، قد طلب إلى نور سعيد بك أن يظل في الخدمة، إذ إنه خلال هجوم أبي سعيد على سبستان، حيث الحاكم المعين من قبل الأمير خليل عام ١٤٦٠م، تقدم سعيد بك مع فيالقه لمواجهة السلطان حسين باي قارا. وتشير الدلائل الى أنه لم يصل إلى هناك، إذ انه قبل ذلك، وهو في طريقه الى سايزفار، استدار تجاه ما وراء النهر، حيث انضمت الى محمد جوكي قوات الأوزبك الرحل، قرب شاه روح، كما انضم إليه، أيضاً، غيرهم من الأعوان.

•ينبغي القول إنه في تلك الأثناء حقق محمد جوكي نصراً تدور له الرؤوس: فخلال وقت قصير للغاية، دانت له معظم ولايات ما وراء النهر، عدا سمرقند وبخارى وبعض المراكز، طبقاً لقول مسعود بن عثمان كوخستاني. وبالاضافة الى ذلك، فقد حقق انتصاراً ساحقاً، على ضفاف نهر كوخك، مع حلفائه، على جيش سمرقند الذي كان بإمرة الأمير محمد مزيد أرغن، وحاصر العاصمة، وإن لم يستطع الاستيلاء عليها. وقد عاثت جنود محمد جوكي والأوزبك الرحل، بالقرى المحيطة لسمرقند سرقة ونهبا.

١٤٦٢م إلى سمرقند، وبعد استراحة قصيرة، وتجهيزات إضافية، توجه إلى شاه روح. وقد طال حصار المدينة المنيعة، هذه المرة إلى عام كامل، ولم يؤد حماس السلطان الشخصي، ولا المهارات الحربية والقدرات القتالية لقواته، ولا نشاط الجواسيس، طوال فترة الحصار، إلى النتيجة المرجوة. كما لم يتمكن أبو سعيد من إخضاع المدينة. ولم ينجح في ذلك قط، كما يشهد «تاريخ التيموريين»، إلا بفضل الثقل المعنوي والوضع الأدبي لرجال الدين: الحاج عبد الله أحرار وشيخ الاسلام برهان الدين، وغيرهما. وفي النهاية، قُضي على تمرد محمد جوكي بالوسائل السلمية، إذا صح التعبير. ولكن، وللعدل، يجب تقرير أن الضغط الأدبي الروحي، لرجال الدين، لم يكن السبب الرئيسي، الذي دعا محمد جوكي وبكواته إلى إلقاء السلاح. وبكلمات مسعود بن عثمان كوخستاني: «من المدينة المحاصرة، نفذ احتياطي المواد الغذائية والأعلاف، وعانى الناس والدواب معاناة جسيمة، الأمر الذي اضطر حماة الحصن: إلى اللجوء الى القواد الروحيين، طلباً للعون». وقد قام الحاج أحرار، كما روى السمرقندي، في البداية، بزيارة السلطان أبي سعيد، ثم توجه الى شاه روح المحاصرة، لمقابلة محمد جوكي وبكواته. ولكن محادثات حضرة إيشان مع محمد جوكي ونور سعيد بك ومزيد أرغين، لم تحقق نجاحاً، إذ لم يوافقوا على إقرار السلام طبقاً لشروط أبي سعيد في الاستسلام الكامل دون قيد أو شرط. وعند عودة الحاج أحرار، بهذا الرد الى أبي سعيد، واصل محادثاته معه، وتوصل إلى تنازلات من السلطان، وكذلك حصل على قَسَمٍ وتعهُّدٍ من قبله بالعفو عن الأسرى. ولذلك، وافق محمد جوكي وبكواته على إلقاء السلاح وفتح أبواب الحصن. وخرج محمد جوكي من حصنه، يرافقه أمراؤه، في الرابع من شهرأكتوبر ١٤٦٢م، وذهب الى معسكر السلطان أبي سعيد، الذي أظهر احترامه وتقديره للأمراء الثلاثة: محمد جوكي ونور سعيد بك ومزيد أرغين، سواء في شاه روح أو سمرقند، وخلف مزيد أرغين في سمرقند، واصطحب معه ميرزا محمد جوكي ونور سعيد بك الى جيرات. وهنا لم يستمر أبو سعيد في التمسك بما قطع من عهد، فوضع الأمور في نصابها، كما يرى. لقد قلد نور سعيد بك قيادة الجيش، واعتقل محمد جوكي في سجن حصن اختيار الدين، حيث قضى نحبه فيه كما ورد في «مطلع السعديين»

المجاورة والبلدات القريبة، ثم رجعوا الى داشت كيبتشك. وقد كان هذا في صالح السلطان أبي سعيد، الذي زحف عبر أموداريا، وبدون مقاومة، توجه الى سمرقند.

غادر محمد جوكي والأمراء التشاغاتيون الى شاه روح، حيث، كما وصف السمرقندي، كانت حصناً قوياً منيعاً لا يمكن اقتحامه، وهي على ضفة سرداريا، تحيطها المياه من ثلاث جهات (سيحون)، ومن الناحية الرابعة، جهة اليابسة، حفرت خنادق ملئت بالماء، (أبكاندهات) وقنوات (جحاوات)، بحيث أصبح العبور خلالها مستحيلاً. وقد طوقت قوات أبي سعيد شاه روح من جميع الجهات، واستمرت الحرب حصاراً على مشارف المدينة مدّة أربعة أشهر، بدون أن ينجح في قهر مقاومتها. ثم إنه، في إثر تلقيه الأنباء المزعجة من خراسان، بادر مضطراً الى رفع الحصار، وسحب قواته، وتوجه بها الى شواطئ أموداريا. وكان ذلك بسبب نشاط السلطان حسين باي قارا التمرّدي، في استرأباد ومازاندران.

وبناء على ما ورد في «مطلع السعديين»، استغل السلطان حسين باي قارا، غياب السلطان سعيد عن خراسان، حينذاك، فاقتحم مازاندران من ناحية خوارزم، وأخضع منطقة أسترأباد. وقد قُتل الأميران الشيخ حجي والله بردا، اللذان كانا من أخلص المدافعين عن مازاندران وأستراباد، في وطيس الحرب مع السلطان باي قارا، وتشتتت قواتهما. ثم توجه السلطان حسين، بعد استيلائه على جورجانة، ناحية جيرات، وأصبحت العاصمة في خطر شديد، وأصاب امراءها حالة من الفزع. لكن المدينة استقوت بفضل الجهود المشتركة التي بذلها الأمراء وقواد الجبهات العسكرية، والحرفيون، وسكان المدينة، الذين اتخذوا الوسائل الفعالة لحمايتها. ويورد عبد الرزاق السمرقندي رواية تستحق الاهتمام عن ثبات الجيراتيين وبطولتهم، على مدى أشهر من حصار السلطان حسين لمدينتهم.

وفي نهاية الأحداث، طرد السلطان حسين باي قارا من بلدة جيرات أولاً، ثم من خراسان كلها، وأخيراً من مازاندران. وبعد ذلك، وفي بداية مارس عام ١٤٦٢م، توجه السلطان أبو سعيد، من جديد، الى بلاد ما وراء النهر. ووصل في نهاية ابريل

قضاء الشتاء فيها. وقد كانت الوقفة الأخيرة في حياته. حل شتاء ١٤٦٨ ـ ١٤٦٩م قارسا، وتواصل سقوط الجليد، مع استمرار هبوب الريح العاتية، فعانى الناس والدواب معاناة كبيرة. ومع أواخر أشهر الشتاء، نضبت تموينات المواد الغذائية والأعلاف. وعلى رأس جيش عظيم العدد من الفرسان المنتقاة على ظهور كرام الخيل، تمركز أوزون حسن، في تلك المنطقة، معسكراً على مسافة قريبة جداً من موقع السلطان أبي سعيد. وكان الوضع حرجاً للغاية،وفي ظل هذه الظروف، طلب السلطان السلام، ولكن أوزون حسن رفض طلبه، واندلع القتال. اندحر جيش التيموريين، وكان النصر في جانب التركماني الآق كيونيلي، ووقع السلطان نفسه في الأسر، وطبقاً لرواية السمرقندي، كان ذلك في العشرين من شهر رجب ٧٨٣ هـ (٢ نوفمبر ١٤٦٩م). وبعد يومين جرى اعدام أبي سعيد.

واتحد السلطان محمود بن أبي سعيد، في مورغابة، مع السلطان احرار الذي خرج لمساندة والده. وفي السابع عشر من مارس ١٤٦٩م، خطب على منبر المسجد الجامع، في جيرات، باسم الأخوين، بيد أن محاولتهما في التمسك بالعرش باءت بالفشل، فقد وصل الى جيرات، بعد أسبوع، السلطان حسين باي قارا، وفي يوم الرابع والعشرين من الشهر نفسه، جرت الخطبه باسمه. وقد عزف الأخوان، في هذه الظروف، عن الصراع على عرش خراسان، ورحلا الى الضفة اليمنى لأموداريا، وسرعان ما انتقلت سيطرة التيموريين على الضفة اليسرى للنهر الى أيدي السلطان حسين باي قارا، وأولاده.

هكذا، بقي في أيدي خلفاء السلطان أبي سعيد، بلاد ما وراء النهر وحدها وصارت عبارة عن مجموعة من الجوتشي المنفصلة، المتناحرة فيما بينها. وقد لعب يونس خان المغولستاني دوراً بارزاً في تاريخ أبي سعيد، خصوصاً بعدما تصاهر، في السبعينات من القرن الخامس عشر، مع عمر الشيخ والسلطان ميرزا احمد. فعلى سبيل المثال، استقطع من عمر شيخ أوش أولاً، ثم طشقند وسايرام، في وعده بالمناصرة في الصراع ضد السلطان احمد.

«وتاريخ أبي الخيرخان»، في ظروف غامضة جداً، ويرجح أنه قد قضي عليه سراً، بناء على تعليمات من أبي سعيد.

وهكذا تخلص السلطان أبو سعيد من واحد من أقوى معارضيه شكيمة.

وفي السنوات الأخيرة من حكم أبي سعيد، وبعد أن حازت امبراطورية التيموريين صيتاً ذائعاً، بدأت في فقد بريقها العالمي، وضعفت صلاتها القديمة مع جنوا و ڤنيسيا وأسبانيا وفرنسا، ومع غيرها من الدول. وعلاوة على ذلك، فقد تدعمت اتحادات الرحل، الكالمبيين والأوزبك، على حدود الامبراطورية، في الشمال والشمال الغربي، كما تدعمت آق كيونيل في الغرب. وفي عام ١٤٦٧م، أوقع أوزون حسن أحد مشاهير آل آق كيونيل (١٤٥٣ ـ ١٤٧٨م)، هزيمة بجاهان شاه زعيم الاتحاد الكونفدرالي لقاراكيونيل (١٤٣٨ ـ ١٤٦٧م)، واحتل تبريز. وكما هو ثابت، لقد كان أوزون حسن في عداوة مع السلطان التركي محمد الثاني، المشهور باسم محمد الفاتح (١٤٥١ ـ ١٤٨١م). وعقد تحالفاً مع ڤينسيا عام ١٤٦٤م، فأمدته بالسلاح والمعدات الحربية، كما تحالف مع القارامانيين[٣٠] ومع حاكم الامارة الترابزونية[٣١]، وتلك الانجازات لم يكن لها مثيل بالطبع لدى السلطان أبي سعيد. وعلى كل حال، فقد بذل أوزون حسن عدة محاولات لتطبيع العلاقات مع السلطان أبي سعيد، بيد أن سفارته الى التيموري، لم تثمر. وعلاوة على ذلك، تميزت علاقته بأوزون حسن بالتوتر. وقد وضع أبو سعيد لنفسه هدفاً بأن يخضع غرب ايران وأذربيجان. وفي سبيل تحقيق هدفه هذا، زحف إليهما في ربيع ١٤٦٨م بجيش جرار، وخطّط لقضاء الشتاء في أذربيجان، ومواصلة مسيرته في الربيع التالي إلى أوزون حسن. ثم حدث أن توقف السلطان أبو سعيد في يراري موجان، حيث قرر

---

٣٠ ـ قارامانيون ـ قارامان، عائلة عظيمة، قادت الحكم في الاناضول الوسطى من عام ١٢٥٦م الى عام ١٤٨٣م.

٣١ ـ الامارة (الامبراطورية) الترابزونية ـ دولة كانت تقع الى الشمال الشرقي من آسيا الصغرى (تركيا) قامت في الفترة من عام ١٢٠٤ الى عام ١٤٦١م.

فقد حدثت وفاته في التاسع عشر أو العشرين من شهر يوليو١٤٩٤م (منتصف شوال ٨٩٩ هـ).

وقد اعتلى العرش، خلفاً للسلطان أحمد، السلطان محمود، الذي حكم منذ عام ١٤٦٩م، مناطق ترمذ وتشاغانيان وخيسار وخوتالان وكوندوز وباتلار وبادخشان. ولم يمتد به الأجل بعد موت أخيه أكثر من ستة أشهر، إذ توفي في ديسمبر ١٤٩٤م، في ظروف بالغة الغموض. وطبقاً لما سجل خوندومير: لقد كان شخصاً بسيطاً، ولكنه سبّب الكثير من الغضب لدى عامة الناس، لم يكن في وفاق مع خلفاء الحاج عبيد الله أحرار، ذوي المكانة الرفيعة. ويورد بابور، العالم بالوضع الاجتماعي والسياسي جيداً في بلاد ما وراء النهر، خصوصاً في العاصمة سمرقند، خلال التسعينات من القرن الخامس عشر، عن ذلك الحادث رواية تستحق الاهتمام. وطبقاً لذلك، كان سقوط السلطان محمود مرزا السريع، نتيجة لسياسة الضريبة، التي طالت قادة المسلمين أنفسهم، والقسوة وعدم احترام القانون من جانبه ومن جانب حاشيته، حتى ضد ذرية الحاج أحرار. وعن ذلك نقرأ في بابورنامة: «كانت طبيعته تميل الى العنف والخيانة». وبدأ، عند قدومه سمرقند، فوراً، في وضع القواعد والنظم الجديدة، وفرض الضرائب. ولقد كان الناس الموالين للحاج أحرار، ومن بينهم كثير من الفقراء والمساكين، بمعزل عن التعسف في فرض الضرائب، بفضل حماية الحاج أحرار لهم، ولكنهم الآن صاروا يرزحون تحت وطأة الاضطهاد والعنف، الذي وصل الى أهل الحاج أحرار». ويشير بابور الى خلاصة أخرى: فقد أدى الموت المفاجئ للسلطان محمود الى التعجيل بالصراع بين التيموريين أنفسهم على العرش، ومنهم مالك محمد ميرزا بن منو تشخرا ميرزا وشقيق السلطان أبي سعيد، وميرزا آخر لم يرد اسمه. ويمكن اجمال القول إن السلطان محمود ميرزا قد راح ضحية الصراع بين المطالبين بالعرش ومؤيديهم من الزعماء الروحيين.

وقد كان للسلطان محمود ثلاثة أبناء: السلطان مسعود وبايسنكور والسلطان علي. وقد تولى الأول، في حياة أبيه، حكم خراسان، وحكم الثاني بخارى وأعمالها،

أدت العلاقات المتوترة بين الأخوين، عمر شيخ وميرزا احمد، في نهاية الأمر، إلى نشوب الحرب بينهما. ففي عام ١٤٨٥م، وجه عمر الشيخ ميرزا، بالتحالف مع شقيق زوجته، السلطان محمود خان، حاكم طشقند (١٤٨٧ ـ ١٥٠٣م)، جيشاً إلى سمرقند. وبدوره، خرج السلطان أحمد، في جحفل كبير من جيشه، من سمرقند، لملاقاته. وتورد المصادر،خصوصاً السافي، تفصيلاً عن ذلك الصراع العظيم بين الحاكمين، غير البعيد عن شاه روح، بجيوشهما العظيمة العدد. وقد كان من أسباب سعادة البلاد والعباد، أن الأمر لم يكن قد وصل الى حد التحام الجيشين في قتال، حتى هب الحاج عبيد الله أحرار، تلك الشخصية الفذة، خادم السلام، الى القيام بدور الوسيط بين المتحاربين، وقد نجح في جمع الثلاثة معاً، عمر شيخ ومحمود خان وأحمد ميرزا، على بساط واحد، وحقق الصلح بينهم، وأقر السلام. إلا أن اتفاق السلام الذي توصل اليه بصعوبة كبيرة، لم يدم طويلاً. ففي عام ١٤٩٤م، هاجم السلطان أحمد، بجيش كبير العدد، أنديجان، وكما يتضح من الشواهد التاريخية، كان تحركه سريعاً. وبدون مقاومة تذكر، وصل حتى قووا الواقعة على مسيرة أربعة إيغاتش[٣٢] من انديجان. وكان لدى عمر شيخ وبكوات انديجان علم مسبق بذلك، فاستعدوا للحرب. ولكن، وخلال حمى الاستعداد للقتال، وقعت حادثة مؤسفة لحاكم فرغانة، حيث كان في أساكا، بمقره الصيفي، عندما صعد الى سطح مسكنه، مزاولا هوايته في الاستمتاع بأسراب الحمام التي يقتنيها، فسقط من فوق السطح ليلقى مصرعه فوراً. وطبقاً لرواية بابور، جرى ذلك في العاشر من شهر يونيو ١٤٩٤. وانتشر الاضطراب والفزع. غير أن السلطان احمد، لم يستغل تلك الفرصة السانحة، بل استدار بجيشه،وقفل راجعاً، ويبقى هذا الأمر دون تفسير واضح في مراجع التاريخ. ويظهر أن الذي حال دون تحقيق الهدف الأساسي لتلك الحملة، هو مرض السلطان احمد نفسه، والذي أودى بحياته، بعد ذلك، في أثناء عودته الى سمرقند، حيث قضى نحبه في أورانتبه. وعلى قول بابور، مات السلطان احمد، بعد مضي أربعين يوماً على وفاة عمر شيخ ميرزا، وان كان ذلك صحيحاً،

---

٣٢ ـ ايغاتش ـ وحدة الطول لقياس المسافات وهي تعادل حوالي ستة كيلو مترات.

كونباي، بثلاثة آلاف قتيل.

وكان أول من برز للهجوم من هاتين الفرقتين المتعاديتين، أمراء تارخان، الذين كما ذكر خوندمير» تمنطقوا بحزام العداوة، ورفعوا راية العصيان، في سمرقند»،وطبقاً لبابور، فإن تمرد الطرخانيين جرى في شهر محرم ٩٠١ هـ (سبتمبر ـ اكتوبر ١٤٩٥م). وفي بداية اندلاع التمرد، بعث بايسنكور الى خيسار سترمان الرسل، طالباً العون من ملازميه القدامى والأمراء، ويبدو أن مناصريه هناك كانوا أكثر منهم في سمرقند. ويسجل بابور «: لم يعمل بايسنكور ميرزا، ولم يتصل ولم يتصادق مع بكوات سمرقند ومحاربيها، كما كان يفعل مع الخيساريين». وتطورت، بعد ذلك، الأحداث على النحو التالي: «استدعى أمراء ترخان. والحاج محمد يحيى، السلطان علي ميرزا من قارش، واصطحبوه معهم الى باغيناو، ليلاً، حيث كان هناك، في الوقت نفسه، ميرزا بايسنكور. وبضربة خاطفة مفاجئة، انقضوا على الحرس والملازمين، وقبضوا على بايسنكور، أسيراً. واقتيد أمير العرش بايسنكور والسلطان علي الى سمرقند، حيث اعتقل بايسنكور في سجن كول سراي، ونودي بالمرزا علي، سلطاناً على بلاد ما وراء النهر. غير أن بايسنكور تمكن من الهرب، ونجح في الاختباء في بيت الحاج أبي المكارم الكائن في خوج كغشير. ويحكي بابور تفصيل ذلك: ذهب بايسنكور لقضاء حاجته، الى بناية في الجهة الشمالية الشرقية من بستان سراي، وعلى بابه وقف طرخانون، وقد رافق الميرزا محمد كولي كاأوتش وحسن شرباتشي. وكان في الجهة الخلفية، حيث ذهب الأمير لحاجته، باب موصد بالحجارة، يفضي إلى فناء خارجي، فقام لتوّه بهدم الحاجز، وانطلق في وحل المجاري، حتى جدران الحصن المطلة على غادفار، ورمى بنفسه من فوق الجدار، وأسرع يعدو باتجاه خوج كغشير، الى بيت جودجاجي خوجة». وحاول السلطان علي والأمراء الطرخانيون، جاهدين العثور على بايسنكور الهارب، فلم يفلحوا. ثم انه، بعد يوم او يومين، تحرك أنصار بايسنكور، ضد السلطان علي ومؤيديه، وتمكنوا من اعتقالهم في آرك. والمثير هنا، أنهم تلقوا

وحكم الثالث قارش. وقد اعتلى بايسنكور العرش خلفاً لأبيه، وكان له من العمر، حينذاك، ثمانية عشر عاماً.

لقد حفلت فترة حكم بايسنكور القصيرة باستشراء النزاعات الداخلية والشقاق بين ورثة الحكم، وقد أذكى هذه الأحداث، الأمراء والوجهاء من علية القوم، خصوصاً الزعماء الروحيين الذين تفرقوا فرقاً حول المتنافسين. وفي عام ١٤٩٥م، تبلور بوضوح، تشكُّل فرقتين، متضادتين متعاديتين، فوقف قسم من الأمراء: أحمد حاج بك ومحمد كولي كاأوتش وحسن شارباتشي وآخرون، برئاسة شيخ الاسلام حاج أبي المكارم، وقفوا إلى جانب بايسنكور ميرزا، في حين أيد الأمراء درويش محمد طرخان ومحمد مزيد طرخان وغيرهما، بالتحالف مع الحاج محمد ياقتوى ابن الحاج أحرار وخليفته، السلطان علي ميرزا.

وتزامن في ذلك الحين، قيام السلطان محمود خان، حاكم طشقند، بالهجوم على سمرقند، ضد السلطان بايسنكور ميرزا. ويذكر كمال الدين بيناي أنه لم تكن هناك شواهد عن الوضع الحقيقي في سمرقند، خصوصاً عن مدى امكانيات بايسنكور مرزا، الذي تجند، تحت لوائه، أكثر من ثلاثين ألف محارب، بقوادهم، من سمرقند وخيسار وشدمان. ومثل ذلك أورده بابور، وان لم يتعرض لتعداد الجند، فيكتب أن بايسنكور ميرزا قد هبّ ضد المغول، أي السلطان محمود خان، بجيش قوي، كثير العدد جيد التسليح. وبحسب قول المؤرخ: كانت الموقعة بين بايسنكور ومحمود خان، في بلدة كون باي (كون باي دولدي)، قاسية ودموية، ونقرأ عنها في «بابور نامه» ما يلي: تقلد حيدر قوقك تاش، العمود الأساسي للجيش المغولي، قيادة الطليعة، وترجل جميع جنوده عن الخيل، وصاروا يرمون السهام. واهتاج الحماس الكثير من فرسان الايجيئين، من سمرقند وخيسار، فزجروا الخيل الى الأمام، ووقع المغول، الذين كانوا بقيادة حيدر بك، وقد ترجلوا عن خيلهم، تحت سنابك الجياد. وعندما قبضوا على حيدر بك، لم يستطع المغول أن يستمروا في القتال، وقهروا رغم كثرتهم. ويقدر كمال الدين بيناي، الرقم الصحيح لخسارة المغول، عند

من أمرائه: قاسم دولداي وفايز لاجاري وحسن نابير وسلطان محمد سايقال، مع قواتهم، واتحدوا مع بابور، في مكان يقال له أبيار (كروك) (عند خوندمير: كروك زيبا). وفي العام التالي ١٤٩٧م، حانت أكثر الأوقات شدة بالنسبة لبايسنكور، وكان قد أرسل رسلاً كثيرين إلى شايباني خان، الموجود وقتها في تركستان، محاولا اغراءه لدخول الصراع، ومن ثم قرر الخان استغلال هذا الظرف، ووصل بجيشه الى قرب خوجة ميدار، ولكنه لم يلتحم مع جيش بابور في قتال، بل واصل مسيرته باتجاه سمرقند[٣٣]. قابله بايسنكور طبقاً لرواية بابور وخوندمير، ببرود شديد، فلم يسع الخان إلا أن يعود، يائساً، إلى تركستان. وكما يتضح من «شيباني نامة» لبنائي، لم يكن رجوع شيباني، فقط لهذا السبب، ولكن كانت هناك ملابسات أكثر جدية. كابد الخان، في ذلك الوقت، مشقة كبيرة، في ربيع ٩٠١ هـ (سبتمبر - أكتوبر ١٤٩٥م)، وخصوصاً صراعه الحاد ضد بوروندوق خان، الذي استولى على سورام، وأسر شقيق شيباني محمود سلطان، حاكم تلك المدينة الحصينة، وأرسل الى طشقند لدى السلطان محمود خان، حليفه، وعدو شيباني. هذا بالاضافة الى أن أمراءه القدامى، وفريقاً كبيراً من سلاطينه: سيونتش خوجه خان ولوتشكونجي خان وحمزه سلطان ومهدي سلطان، وغيرهم، كانوا، في ترحال حول داشت كبتشاك، وكان حمزة سلطان ومهدي سلطان، في الخدمة لدى بايسنكور، في سمرقند. وعلى ذلك، لم يكن لدى شيباني خان، القوة الكافية للصراع من أجل سمرقند، علاوة على تهديد حكمه في تركستان، من جانب بوروندوق خان، القوى المؤثرة، وأقربائه.

وقد عجل في نهاية الصراع، في ما وراء النهر، انحياز كثير من الأمراء الى جانب بابور، ومغادرة السلاطين الشيبانيين لسمرقند، بالاضافة الى حصار العاصمة من قبل بابور، الذي طال لمدة سبعة أشهر. وفي صيف ١٤٩٧م، استحوذ

---

٣٣ - توقف شيباني خان عند حصن سار أولانج، الواقع على ضفة نهر كوخاك (خوندمير).

في نشاطهم هذا، تأييد العسكريين، وحظوا برضاء عامة الناس في البلد. وقد استولى على آرك، ولم يتمكن من أفراد الفريق المعادي من الفرار من المدينة، سوى محمد مزيد طرخان، أما الباقون، بمن فيهم السلطان علي ودرويش محمد طرخان، فقد قبض عليهم، وسيقوا إلى بايسنكور في خوجة كغشير. وقد أعدم درويش محمد طرخان في مكانه، في حين أمر بايسنكور بترحيل السلطان علي الى كول سراي، وسمْل عينيه. لكن السلطان علي تمكن من الافلات من العقاب والفرار من كول سراي. ونجح في الاختباء في بيت خوجة محمد يحيى أولا، ثم بعد مرور عدة أيام، واصل فراره الى بخارى. وبناء على خوندمير، فقد ساعده في فراره أحد مبشري بايسنكور.

وبمرور الزمن، ازدادت حدة الأزمة السياسية في ما وراء النهر. وفي الصراع على سمرقند، اقتحم الحلبة اثنان آخران من أدعياء الحق في الحكم هما السلطان مسعود ميرزا، حاكم خيسار شدمان وخوتالان، ومحمد ظهير الدين بابور. وكان مسعود ميرزا متمتعاً بقوى كبيرة، بالاضافة الى تأكيد الأمير الوالي، الأخ الأصغر، خسرو شاه، الموجود في شهر سابز. وعقد بابور تحالفا مع خوجة محمد يحيى، وفي أواخر رمضان ٩٠٢ هـ (مايو - يونيو ١٤٩٧م)، حل بسمرقند.

وعودة الى سلطان علي وبايسنكور: فانهما ومنذ ربيع عام ٩٠٢ هـ (سبتمبر - أكتوبر ١٤٩٦م)، وقفا بجيشهما في مواجهة بعضهما بعضاً، دون حراك. وكان بايسنكور في ساريبول، وغريمه في خوجة كردزان. وطوال الصيف و الخريف من عام ١٤٩٧م، دارت اشتباكات متبادلة، ولكن لم ينجح أي منهما في الاستيلاء على عاصمة ما وراء النهر. وقد رحل السلطان علي، بعد عدة اشتباكات مع بايسنكور، الى بخارى، أما بابور، فانه مع مقدم فصل البرد، رحل الى حصن خوجة ميدار.

وقد ساءت حالة بايسنكور، في المدينة المحاصرة، يوما بعد يوم، وأنهكت قواه، واشتد التنافر بين أمرائه. وقبل ذلك، وفي ربيع ٩٠١ هـ (١٤٩٦م)، فارقه جماعة

الغنائم والاسلاب كانت وسيلة مجدية، في أيدي أشراف الاعيان الاقطاعيين والخانات، لاخضاع بسطاء البدو، والسيطرة على الرحل، وعلو الشأن واسترداد النفوذ. ولهذا فإن أعيان الاقطاع، والأشراف، مثل بسطاء الجند، كانوا يساندون الخانات والباد شاهات، طالما قادوا حروباً انتصروا فيها، أما في الأحوال العكسية، فكانوا ينفضّون من حول الحكام. وقد حفظ التاريخ كثيراً من الشواهد على ذلك. وهذا ما حدث مع بابور، حيث لم يكن في حالة تمكنه من شن حرب يكتب له فيها النصر، ولم تَقْوَ سمرقند المخربة على اعالته واعالة جنده. وقد كانت الحالة السياسية متردية تنذر بالسقوط. وفقد، في هذه الأيام بالذات، سيطرته على فرغانة، حيث سلبها منه احمد تنبل وأوزون حسن، ولم يكن لدى عمه السلطان محمود خان، حاكم طشقند ، امكانية تقديم مساعدة فعالة له، نظراً لقلقه على مصير حكمه، وارتباطه بمساعدة بوروندوق خان وشيباني خان.

وبعد انتزاع الحكم على فرغانة، آلت السلطة في سمرقند الى أيدي محمد مزيد طرخان، في حين نجح السلطان علي في احتلال عاصمة ما وراء النهر، وصار حاكما ولكن بالاسم فقط، حيث كانت السلطة تامة وفعلية في أيدي باكي محمد طرخان ومحمد مزيد طرخان، الأول حاكم بخارى وكرمين وقاراكول وله جيش يقدر بعشرات الآلاف من المحاربين، والثاني حاكم سمرقند وأقاليمها. وعلى هذه الحال، كانت حياة سلطان علي مرزا وأوضاع بلاطه وحاشيته، متوقفة تماماً على الأمراء الطرخانيين. ويشير بابور: «لم يعط باكي طرخان أحداً فلساً واحداً من ثروة بخارى. وكذلك كان محمد مزيد طرخان، حاكما كامل السلطة على سمرقند، استولى على كل المقدرات لصالح أبنائه وأشياعه وأتباعه، وباستثناء قدر يسيرٍ من مدخول المدينة، خُصص للسلطان علي مرزا، لم يكن يصل اليه فلس واحد من أي طريق آخر».

وفي العام ٩٠٥ هـ (١٤٩٩م)، حيكت مؤامرة ضد محمد مزيد طرخان، فيما يبدو، دون اشتراك خوجة محمد يحيى، وحينما استشعر ذلك، فر من سمرقند

بابور على سمرقند. وارتحل بايسنكور الى خسروشاه، واتحد معه في كوندوز، ثم إن قدره انتهى به نهاية مأساوية للغاية، فقد قتله خسروشاه لدى هجومهما المشترك على بلخ، وجرت هذه الأحداث، طبقاً لبابور، يوم العاشر من محرم ٩٠٥ هـ (١٨ أغسطس ١٤٩٩م)، على جسر آبقاج[٣٤]. وكان قد تخلص قبل ذلك بعامين عام ٩٠٣هـ (١٤٩٧م)، غدراً كذلك، من السلطان مسعود مرزا، حيث طعن عينيه بسيخ محمى. والآن صار خسروشاه حاكماً معلن السلطة على كوندوز وباجلان وخوتالان وبادخشان وخيسار شرمان. وبعد خروج بايسنكور من سمرقند، دخلها بابور وحكمها مدّة مئة يوم بالتمام. وقد غادرها يوم السبت من شهر رجب ٩٠٣ هـ (٢٤ فبراير ـ مارس ١٤٩٨م)، في حين دخلها في أول ربيع الثاني ٩٠٣ هـ (٩ ديسمبر ١٤٩٧م).

وقد جرى حكم بابور لسمرقند، خلال مائة يوم، في ظروف بالغة القسوة، من الناحيتين الاقتصادية والسياسية. ويروي بابور نفسه عن ذلك: «نفذت الغنائم سريعاً، وعندما احتلت سمرقند كانت مدمرة لدرجة أن أهل البلد كانوا في مسيسس الحاجة الى الحبوب والمال، فعانى المحاربون من هذا النقص الشديد، إضافة الى حنينهم لأوطانهم. ومن ثم بدأوا الهرب زرافات ووحداناً، وأول من فر كان خان قل ابن بيانقل، وبعده ابراهيم بكتشك. وقد فرّ المغول عن بكرة أبيهم، ثم السلطان احمد تنبل».

وهذا ما ينقله خوندمير، وكما هو معلوم، فإن غنائم الحرب احتلت مكاناً هاماً في حياة مجتمع الاقطاعيات وحكامها، وقد قدمت نفعاً كبيراً ليس للأشراف والأعيان فحسب، بل للجند وعسكر الجيوش. تحققت الغنائم من طريق الإغارة والحروب الإقليمية، والهجمات على البلاد المجاورة. وعلاوة على ذلك، فإن هذه

---

٣٤ ـ معبر في أموداريا على حدود اقليم كوباديان.

بخارى، بانباء محزنة، مفادها أن شيباني خان، بعد أن استولى على بخارى، توجه فعلاً الى سمرقند. وهنا، لم يعد أمام بابور ما يمكنه عمله، ومن ثم رحل الى شهر سايز.

وبذلك أدت الحروب الداخلية، والخصومات، بالاضافة الى غياب السلطة المركزية القوية، إلى ضياع بلاد ما وراء النهر، في نهاية الأمر، ثم استحواذ الأوزبك الرحّل عليها، وعلى رأسهم شيباني خان.

وعلى وجه التقريب، ساد هذا الوضع قبيل غزو الأوزبك الرحل لخراسان. ولكن هذا الأمر، موضوع بحث آخر.

تصحبه أسرته وخدمه وحراسه الخصوصيون وأمراؤه: سلطان حسين أرجون وبير أحمد وخوجة حسين وصالح محمد، وغيرهم. ويقول خوندمير إنه حمل معه الخزنة وكثيراً من النفائس.

ولما صار وضع السلطان علي ميرزا مزعزعاً. واصل محمد مزيد طرخان صراعه ضده، وجر معه في ذلك السلطان عويس ميرزا، شقيق السلطان علي، المشهور باسم ميرزا خان، والذي أيد السلطان محمود خان، وأمده بجيش بقيادة محمد حسين دوجلات، والد عالم التاريخ المعروف محمد حيدر ميرزا، وأحمد بك، وغيرهما من الأمراء. سار خان ميرزا والجيش المغولي الى سمرقند بخطى حثيثة، وسرعان ما وصلوا الى منطقة شاورار، الواقعة جنوب شرقي سمرقند، وهناك تمت المقابلة بين محمد مزيد وبكواته المرابطين، وحينذاك في حصن شاورار، وخان ميرزا وبكوات المغول. إلا أن التوجس بعدم الثقة المتبادلة، لم يؤدِّ الى عقد التحالف.

وكما سجل بابور:«انسحب بكوات محمد مزيد،لأسباب واهية، من الجيش المغولي». وفي إثر ذلك، غادر الموقع، خان ميرزا والمغول متوجهين الى يار يابلاك، ولم يشتبكوا مع القوات التي أرسلها ضدهم السلطان علي، وفروا باتجاه طشقند. وقد جرت هذه الأحداث، طبقاً لبابور وخوندمير، في ربيع ١٥٠٠م.

ولم يُلْقِ محمد مزيد طرخان السلاح بعد هذه الأحداث. وبعث الى انديجان مير مغول، واستنجد ببابور في سمرقند. وقد انقض بابور وجاهان جير ميرزا، في شهر ذي العقدة ٩٠٥ هـ (يونيو ١٥٠٠م)، على سمرقند. غير أن الأمور تطورت بسرعة بالنسبة لبابور ولمحمد مزيد، وقد صار معلوماً في أورا تيبا، أن شيباني خان قد ألحق الهزيمة بمحمد باكي طرخان، وتقدم لاحتلال بخارى. وصل بابور إلى القرب من سمرقند، وحاول جاهداً اقتحام المدينة، بمساندة خوجة محمد يحيى. وقد سافر خوجه محمد علي كتابدار، رسولاً لبابور، غير أن رد الايشان العظيم كان غير محدد ولم يعد بشيء، وكذلك عاد جور بارلاس من سفره للتجسس في

الفصل الحادي عشر

العلوم والثقافة والفكر العقائدي من القرن الثالث عشر وحتى القرن الخامس عشر

أدى الاجتياح المغولي إلى تدمير شديد في معظم النواحي الاقتصادية والثقافية لبلاد ما وراء النهر. وقد جاء في وصف المؤرخ ابن الاثير (١١٦٠ ـ ١٢٣٤م) لهذه الأحداث أنها «مأساة بشعة، ومصيبة فادحة، لم ير مثلها ليل ولا نهار على سطح الأرض، عمت البلاد والعباد». وقد اكتسح هذا الغزو، في طريقه، جميع الوديان الخصيبة، والبلدان العامرة، والمدائن الزاهرة، وحوّلها إلى أطلال خربة.

وبداية من النصف الثاني من القرن الثالث عشر، ابتدأ بعث بلدان ما وراء النهر بمدنها وقراها. ومن أبرز ما تم من المنجزات الأولى، ما قام به الوالي المغولي الاقليمي مسعود بك (١٢٣٩ ـ ١٢٨٩م)، حيث بدأ تشييد مدينة بخارى، وأقام مدرستين كبيرتين هما المسعودية والخانية في عام ١٢٦١م. وقد شيدت الخانية على نفقة أرملة تولوي خان، والدة كل من موفقي خان (١٢٥١ ـ ١٢٦٠م)، وهولاكوخان (١٢٥٦ ـ ١٢٦٥م)، مؤسس دولة الخانيين. ويرجح الباحثون، أن المدرستين كانتا ثنائيتي الطوابق، في كل منهما العديد من حجرات قاعات الدرس، واشتملتا على مساكن لمعيشة الدارسين، وأفنية واسعة. ولكن، لم يبق منهما أثر قائم حيث احترقتا جميعا في عام ١٢٧٣م، زمن اجتياح جيش هولاكوخان.

وكذلك تلاشى القصر العظيم، الذي شيده في ضواحي مدينة «لسف» أحد كبراء

وقد ظلت دون اكتمال. كذلك، وخلال الأعوام من ١٣٩٩م وحتى ١٤٠٤م، شيدت بيبي هانم (زوجة تيمور لنك الأولى، والأثيرة لديه)، أعظم المساجد اتساعا في حينه، وهو المسجد الجامع.

وقد بذل الكثير من الجهد لإعمار مدينة سمرقند وازدهارها، في عهد أولوغ بك (١٤٠٩ ـ ١٤٤٩م)، ومن شواهد ذلك: متحف جاليري في شاه زندا، ومدرسة في بخارى (١٤١٧م)، ومدرسة في سمرقند (١٤٢٠م)، وفي غجدوان (١٤٣٣م)، والمرصد الفلكي في ضاحية تشوليان أتا (١٤٢٤ ـ ١٤٢٨م).

وقد شيد الكثير في مدينة شهرسابز، من ذلك: مسجد كوك جومباز (القبة الخضراء) (١٤٣٥ ـ ١٤٣٦م)، والضريح الأثري التذكاري «دار التلاوات[1] في بداية عام ١٣٨٠م.

هذا بالاضافة إلى العديد من المنشآت الأخرى، التي يمكننا ذكر بعض منها مثل أضرحة دفن كل من: الحاج أحمد يَساوي في تركستان (بداية ١٣٩٨م)، وتورابك هانم في أورجنتش (السبعينات من القرن الرابع عشر)، وحضرة الشيخ الإمام معين في بشكنت (القرن الرابع عشر)، وبيانقل خان في بخارى (منتصف القرن الرابع عشر).

وينبغي هنا، أن نورد ذكر التجمعات العمرانية، التي وجدت في ذلك الحين، وكانت مدينية الطراز، وأطلق عليها أسماء البلدان العريقة الشهيرة مثل: مصر، دمشق، بغداد، سلطانية، شيراز. وكما جاء في تاريخ أوزبكستان: «كان هناك توجه سياسي معين، القصد منه أن تظهر هذه المدائن الصغيرة، خابية أمام سمرقند، المدينة العظيمة الغنية». كما قام تيمور بتصميم وانشاء عشرة منتزهات، ضمت قصوراً ونافورات ومسابح: باغ بالانت (الحديقة العالية) في شمال المدينة، وباغ بهشت (حديقة الجنة) في غربها، وباغ دولت أباد (حديقة دولة أباد) في الشرق،

---

١ ـ كان مشهوراً في ذلك الحين تشييد مكان خاص، غالبا بجوار أحد مشاهير الصوفية، يعتكف به شلة من مريديه لمدة أربعين يوماً، يتلون الأذكار والأوردة والأدعية.

ورثة تشاغاتاي، وهو كيك خان (٣١٨ ـ ١٣٢٦م)، كما زال زنجير سراي (قصر السلاسل)، الذي شيده قازان خان (قتل عام ١٣٤٧م)، في مقاطعة قاشقا داريا.

والأثر الوحيد، الذي ظل باقياً، لعمارة ما وراء النهر، في القرن الثالث عشر حتى وقتنا الحالي، هو الضريح الشهير، للشيخ سيف الدين البخارزي (١٢٩٠ ـ ١٢٦١م)، خليفة الطريقة النقشبندية، وأستاذ المدرسة الخانية في بخارى ومُتولِّيها، والتي سبقت الإشارة اليها.

ولقد سارت عمليات البناء والتشييد، في بلاد ما وراء النهر، منذ القرن الرابع عشر وحتى الوقت الحالي، في طريقها، من مدن سمرقند، وشهر سابز، وبخارى وجورجانج، وغيرها. وأكثر ما شيد كان حصوناً دفاعية، وقصوراً وأضرحة، وحدائق منتزهات تشارباغ.

لقد تم خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر إنشاء مجموعة أضرحة، في الناحية الجنوبية من مدينة «أفراسياب» عرفت باسم «شاهي زندا» (القيصر الحي). بدأ إنشاؤها في القرن الحادي عشر، حول قبر قصي بن عباس، ابن عم محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومبعوثه، والذي استشهد في عام ٦٧٦م. وقد بني حولها تايغاتس يوغرا خان، وعلى جانبي السلم الرئيسي، عدداً من أضرحة الدفن لكل من: تو غلوك تيغين (١٣٧٨م) وشرين بكه، أختي تيمور، وتورقان أوغا وتومان أوغا، زوجتيه (١٤٠٥ ـ ١٤٠٦م)، وشخص مجهول (١٣٧٠م)، والحاج أحمد (القرن الرابع عشر)، وشادي ملك (١٣٧٢م)، وقازي زاده الرومي (١٤٣٧م).

كما شيدت قصور فارهة، رباعية الطوابق، في الأرجاء الحصينة من المدينة مثال، كوك سراي (القصر الأخضر)، وبستان سراي (قصر الحدائق). فكان الأول ترسانة حربية، ومخازن للأسلحة وورش تصنيعها، وداراً لصك النقود، وسجناً لعلية القوم، في حين ضم بستان سراي دواوين الحكم. وفي ذلك الحين، في سبعينات القرن الرابع عشر، وفي الجهة المقابلة لمبنى جور امير (قبر الأمير)، بُوشر بإنشاء أق سراي (القصر الأبيض)، ضريحاً لدفن تيمور، والتيموريين من بعده،

الخوارزمي، والفقهاء: عبد المالك وعصام الدين والشيخ شمس الدين محمد بن جازاكري (المتوفى عام ١٤١٩م)، والفيلسوف سعد الدين التفتازاني (توفي عام ١٣٨٩م)، ومير سعيد شريف الجورجاني (١٣٣٩ـ ١٤١٣م)، ويوسف القاراباغي (توفي عام ١٦٤٦م)، واللغوي محمد عليم، والحاج فضل الله أبو الليثي، والأديب شيخ عريف الأزاري (١٣٨٢ ـ ١٤٦٢م)، وعلماء الرياضيات والفلك: قاضي زاده الرومي (توفي حوالى عام ١٤٣٦)، وغياث الدين الجامشيدي (توفي عام ١٤٢٩م)، وعلي قوستشي[٢] (١٤٠٤ ـ ١٤٧٤م)، والطبيب برهان الدين نفيس الكيوماني، (المشهور في عالم الطب حتى اليوم باسم «ابن النفيس»)، ورواد الموسيقى: عبد القادر المراغي، وابنه صفي الدين أردشير تشانجي، والفنان عبد الحي البغدادي، والشعراء: سكاكي، وهوائي، والحاج عصمة الله البخاري، وقابال بادخشا، وغيرهم.

أشرنا فيما تقدم إلى الكثير من العلوم البحتة والانسانية، والآن نتوقف قليلا مع العلوم الدينية، من قرآن وسنّة وفقه، وكذلك مع أعلام الطرق. فمن علماء القرآن، نخص بالذكر حافظ الدين أبا بركات عبد الله بن احمد بن محمود النسفي (توفي عام ١٣١٠م) صاحب مؤلف «مدارك التنزيل وحقائق التأويل»، وأبا سعيد عبد الله بن عمر ابن محمد بن علي البيضاوي (توفي عام ١٣١٦م)، واضع مصنف «أنوار التنزيل وأسرار التأويل». وقد كان الامام النسفي رحمه الله من أتباع المذهب الحنفي، واشتهر كعالم دين وقانون، في القرن الرابع عشر، وعمل مدرسا بمدرسة القطبية السلطانية في كرمان، ومات ودفن في خوزستان. وقد حاز مؤلفه المذكور انتشاراً واسعاً خارج بلاد ما وراء النهر، خصوصاً في أفغانستان، وهندستان. وقد خط قلمه عملاً آخر، أسماه «الوافي من الفروع»، خاصاً بعلوم الفقه، تناول فيه مبادئ قواعد الفقه (الأصول) كما أوضح تطبيقاتها العملية (الفروع). وشن رحمه الله حملة شعواء على المفاهيم المرتدة والإلحادية المدسوسة على الاسلام، والتى كان

---

٢ ـ المساعد الأول لأولوغ بك. قام بحفظ كل أعماله وكتاباته، بعد أن قام ابنه باغتياله، وحفظها من الضياع والتخريب.

وباغ دلكوشا (حديقة سعادة القلب) على بعد ٦ كيلومترات شرق المدينة، وباغ جاهان (حديقة العالم) في الجنوب، وباغ زبان (حديقة اللسان) في الشرق، وباغ ميدان (حديقة الميدان) في الشمال، وباغ نوا (حديقة الموسيقى) في الجنوب، وباغ تشنار (حديقة) في الجنوب الغربي، وباغ شمال (حديقة الشمال) في شمال المدينة.

في هذه الحقبة، وخصوصاً في بداية النصف الثاني من القرن الرابع عشر وحتى نهاية القرن الخامس عشر، تطورت الفنون الجميلة والتطبيقية، وحققت تقدما كبيراً، الأمر الذي يعكسه كثير من الرسوم التي تصور المناظر الطبيعية على اللوحات الجدارية في الأجزاء المتبقية من المسجد الجامع الذي شيدته بيبي هانم، وفي مقبرتي شيرين بك وتومان أوغا، وفي مرصد أولوغ بك في سمرقند، وفي أق سراي في شهر سابز. وكذلك كانت الرسومات الدقيقة أو ما عرف باسم «فن المنمنمات»، رسومات متقدمة أيضا. ويجب القول إنه كان لسمرقند مدرستها الخاصة في فن المنمنمات، خلال الفترة من نهاية القرن الرابع عشر وطوال القرن الخامس عشر، وكان من أشهر روادها الحاج عبد الحي. ويحفظ التاريخ، من بين فناني سمرقند الرواد، أسماء: بير أحمد باغ شمالي، وجاهان جر البخاري، ومنصور. كما كان فن الحفر على الخشب فناً متقدما، وكذلك كانت فنون تشكيل الأحجار والرخام ونقشها، والصناعات الخزفية، كالنقش بالجبس.

كما برع فن تجليد الكتب، وتحسين الخطوط، وكان من البارزين في هذا المجال عمر أوكتا.

ولقد استمر خلال عهد أولوغ بك، في بلاد ما وراء النهر، رقي العلوم الدينية، كعلم القرآن، وعلم الحديث، وعلم الفقه، وعلم الشريعة الاسلامية وعلم الحساب (الرياضيات)، وعلم الفلك، وعلم الطب، والكثير من العلوم الانسانية والاجتماعية مثل: الفلسفة، والتاريخ، والأدب، وقواعد اللغة، وأوزان الشعر، والموسيقى وغيرها. ونجد في المصادر، خصوصاً لدى ابن العرب شاه، ونظام الدين الشامي، ودولت شاه السمرقندي، وميرخوند، وخوندمير، فصولاً جيدة، تسترعي الانتباه، عن منجزات الكثير من المشتغلين بتلك العلوم أمثال: عالم الدين جمال الدين احمد

ولقد لعبت الطريقة النقشبندية دوراً كبيراً في الحياة الاجتماعية والسياسية لبلاد ما وراء النهر، خصوصاً نشاطات بهاء الدين النقشبندي، وعبد الخالق الغجدواني، والحاج عبيد الله أحرار. ونورد فيما يلي موجزاً عن سيرة كل منهم.

بهاء الدين محمد النقشبندي (١٣١٧ ـ ١٣٨٩م)

أبرز أعلام الطريقة، التي سميت باسمه وذاع انتشارها فيما وراء النهر وآسيا الوسطى، وكذلك في بلاد حوض نهر الأديل (الفولغا حاليا)، وتركيا، ومصر، وسوريا، واليمن، والهند، وتركستان الشرقية. اسمه بالكامل بهاء الدين بن محمد ابن برهان الدين محمد البخاري. ولد في قرية قصر هندوان، عرفت فيما بعد بقصر عريفان، على مسافة اثني عشر كيلو متراً من مدينة بخارى. والده السيد برهان الدين، وأمه بيبي عريفة، من فئات الحرفيين، وقد عملا وابنهما بهاء الدين في نقش المشغولات المعدنية، وتطريز المنسوجات، ومن هنا جاء لقب «نقشبندي» (صانع الزخرفة، نقاش).

تلقى بهاء الدين تعليمه في بخارى، ثم سلك الطريقة على الحاج محمد شاماس البخاري (توفي عام ١٣٤٠م)، ثم على الشيخ الكيش المشهور شمس الدين فقيري، المعروف باسم الأمير كولال (توفي عام ١٣٧١م)، ثم على مولانا عارف الدكجيراني، تلميذ الأمير كولال. كما تتلمذ على شيوخ الأتراك: كوسام شيخ، وخليل أتا. وقد أدى فريضة الحج مرتين، كان في الثانية بصحبة تلميذه الحاج محمد يارس والتقى كثيراً من علماء الاسلام من الجزيرة العربية وايران وتركستان وبخارى. وطبقاً لما جاء في سيرته، عن صلاح الدين ابن مبارك البخاري، في كتابه«أنيس الطالبين وعدة السالكين»، عاش بهاء الدين حياة الكفاف، يأكل من كسب يده.

وتتلخص تعاليم بهاء الدين في شجب التظاهر بالتدين، ومحاربة البدع مثل صيام الأربعين يوماً، والدروشة، وعقد حلقات المدح على صوت الموسيقى، وغيرها، ونهى الأتباع عن التكسي بالدين إلحافاً، وتعمّد إظهار الفقر، والتقرّب الى ذوي السلطان، والحضّ على الالتزام الكامل باحكام الشريعة الاسلامية، والتمسك بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

يروج لها المهرطقون. أما فيما يختص بالشيخ البيضاوي، فقد عمل قاضياً في شيراز، ويرجح أنه دفن في سيرام (أسفيجاب)، وذاع صيت كتابه الذي اشتهر عامة باسم «تفسير البيضاوي».

وقد حقق علم الفقه تقدماً كبيراً، وقدمت بلاد ما وراء النهر فريقاً من علماء الاسلام. ويحفظ التاريخ أسماء كثيرة لامعة لأقطاب هذا العلم الأجلاّء أمثال: أبي البركات عبد الله بن احمد بن محمد النسفي (توفي عام ١٣١٠م) الذي جمع في كتابه «منار الأنوار في أصول الفقه» قواعد الاسلام والمبادئ الاساسية في أحكام الشريعة الاسلامية. وكذلك حظي كتاب لطف الله النسفي «فقه الكيداني» بالاهتمام في الشرق الاسلامي.

وظهر الكثير من المصنفات في مجال التصوف والصوفية خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر، نذكر منها: «الرسالة» و«الرسالة القدسية» و«مقامات خوجة علاء الدين العطار»، و«التحقيقات»، و«الرسالة المحبوبية» لخوجة محمد يارس (توفي عام ١٤١٩م)، و«مناقب خوجة علي عزيزان الراميتاني» لمحمد بن نظام الخوارزمي، وفيه سرد السيرة الذاتية وجمع أقوال الشيخ خوجة راميتاني (توفي عام ١٣٢١م)، و«سلك السلوك» لذائع الصيت مولانا الامام ضياء الدين النخشابي (توفي عام ١٣٥٠م)، ويشتمل على المصطلحات الصوفية، وروايات عن مناقب الصوفيين الأوائل مثل: ربيعة، والجنيد البغدادي وغيرهما، و«مناقب الأمير كولال» لشهاب الدين حفيد الأمير حمزة، عن حياة ومنجزات الأمير كولال من سخارة (من قرى بخارى)، تلميذ العالم الصوفي محمد يابائي ساماس (توفي عام ١٣٥٤م)، و«أنيس الطالبين وعدة السالكين» لصلاح الدين بن مبارك البخاري، عن سيرة حياة الشيخ بهاء الدين النقشبندي. كما ينبغي الاشارة في هذا المقام إلى أعمال الحاج عبيد الله أحرار« الرسالة الوالدية»، وعبد الرحمن جامي «نفحات الأنس»، و«نسائم المحبات»، وعلي بن حسين الواعظ الكاشفي «رشحات عين الحياة»، ومير عبد الأول «مسموعات»، وغيرهم.

الهمداني، الذي رحل إلى خراسان، حينما رحل نائبه الثالث، الحاج احمد يساوي، الى تركستان، ومن ثم شغل عبد الخالق رئاسة الطريقة.

ولدى عبد الخالق الغجدواني، في تعاليمه الروحية للطريقة، الكثير من الواقعية والتقدم، حيث إنه، على وجه الخصوص، ناشد الناس، بالاضافة الى ضرورة الالتزام بالشريعة المنزّلة، التمسّك بحب العمل، والعدل، والطهارة الروحية، والجود، والاحسان، والابتعاد عن التكبر والتعالي والتكالب على المناصب والشح، وغيرها من المعايب. ويحذر أتباعه من ضياع الدين، مقابل عدم الالتزام. ويحفظ عنه قوله الحكيم: «اجعل نفسك بمنأى عن القياصرة، والحكام، وذوي السلطة والقضاة، وما شابههم من أصحاب السلطان».

وما زال الكثير من أقواله محتفظاً بجديته حتى وقتنا الحاضر.

وقد سجل تاريخ حياته وجمع أعماله فضل الله بن روزب خان (١٤٤٨ - ١٥٣٣م) في كتاب أسماه «مقامات الحاج جاهان».

الحاج عبيد الله أحرار (١٤٠٤ - ١٤٩٠م)

أحد مشاهير شيوخ الطريقة النقشبندية، كان من كبار الملاك، وكان رجلاً من رجال الدين والسياسة في القرن الخامس عشر. ولد في مدينة طشقند، في مارس ١٤٠٤م، وكان أبواه من علية القوم. والده الحاج محمود، سليل محمد نامي أحد مشاهير بغداد في القرن العاشر، رحل إلى مدينة ساش، عندما سمع عن أمجاد العالم كغال الساشي (توفي في الفترة ما بين ٩٧٥ - ٩٧٧م)، حيث بقي فيها حتى آخر عمره. ووالدته حفيدة الشيخ المشهور خاوان طهور (توفي ١٣٥٠م). انقضت سنوات طفولته وشبابه في طشقند، وفي عام ١٤٢٧م، رحل بصحبة عمه الحاج ابراهيم، الى سمرقند لمواصلة تعليمه، فالتحق بمدرسة قطب الدين صدر، ولكنه لم يتمكن من اتمام تعليمه، بسبب مرضه، ومن ثم رحل عام ١٤٢٨م إلى «خيرات» ليمضي فيها خمس سنوات حتى عام ١٤٣٢م، وهناك التقى بكل من الشيخ الحاج بهاء الدين عمر الخراساني المشهور، وزين الدين خوافي. وفي عام ١٤٣٢م وصل

ولم يذع صيت بهاء الدين الا بعد موته، حيث اعتبرته العامة مباركاً وصاحب معجزات، وإمام بخارى، وان قبره الذي شيده عام ١٥٢٤م الشيباني عبد العزيز خان (حاكم بخارى خلال ١٥٤٠ ـ ١٥٥٠م)، قد صار مزاراً[٣] يرتاده الكثيرون من محبيه.

يرجع الى بهاء الدين النقشبندي الفضل في ارساء قواعد الطريقة النقشبندية التي تطورت، بمضي الوقت، على أيدي مريديه أمثال: علاء الدين العطار (توفي عام ١٤٠٠م)، والحاج محمد يارس (١٣٤٥ ـ ١٤٢٠م)، والحاج عبيد الله أحرار (١٤٠٤ ـ ١٤٩٠م)، والحاج جلال الدين أحمد كاساني (١٤٦٢ ـ ١٥٤٢م)، والحاج محمد اسلام (١٤٩٣ ـ ١٥٦٣م).

عبد الخالق الغجدواني (توفي عام ١٢٠٠م)

أحد عُمُد الطريقة النقشبندية، وهو واضع أساس الهيكل التنظيمي والتربية الروحية للطريقة. وكما يورد فخرالدين علي بن الحسين، في مؤلفه «فصل الخطاب»، عن سيرة الغجدواني الذاتية، فهو أحد النواب الكبار الأربعة خلفاء الحاج يوسف همداني، رأس الطريقة الصوفية «النقشبندية»، قبل أن تسمى بذلك الاسم.

ولد في قرية «غجدوان» من أعمال ولاية بخارى، وتقع على مسيرة ستة فراسخ (حوالى أربعين كيلو متراً) من المدينة. والده عبد الجليل، اشتهر لاحقاً، بالسيد عبد الجليل الإمام، وكان من علماء الدين ذوي المكانة. ويتحدر نسل سيد عبد الجليل من الأروام (تركيا)، فالأم سليلة السلاطين الأروام. ومن تصاريف القدر رحيل سيد عبد الجليل من مسقط رأسه في رومية التركية، ليستقر به المقام في غجدوان البخارية. وقد ولد عبد الخالق في غجدوان، وتلقى تعليمه الأول فيها، ثم واصله في بخارى على يدي الإمام صدر الدين، حيث درس التفسير المقارن للقرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة. ثم أكمل تعليمه بإشراف الحاج يوسف

---

٣ ـ وما زال ذلك يحدث حتى وقتنا الحاضر، وقد يجاوز الأمر حد زيارة القبر الى تقديم النذور، والدعاء، وطلب العون، والتوسل، وهذا كله يعتبر من مظاهر الشرك والعياذ بالله.

١٤٥٧م) بجيش جرار من خراسان على بلاد ما وراء النهر، وحاصر سمرقند، فقرر السلطان أبو سعيد تركها والفرار الى تركستان، وساد أمراءه حالة من الفزع والاضطراب، وهنا بذل الحاج عبيد الله جهوداً جبارة، فحفظ الوطن وحقق السلام. وفي عام ١٤٨٥م وقفت بلاد ما وراء النهر على شفا حرب ضروس بين عمر شيخ والسلطان محمود خان، قادة طشقند، من جهة، والسلطان احمد ميرزا من جهة أخرى، واحتشدت الجيوش بناحية آغانجران، ولكن، وفي هذه المرة أيضاً، أطفأت جهود سماحته نيران الحرب.

وقد جمعت آراء الحاج عبيد الله أحرار وأعماله ومنجزاته في مسائل الصوفية في مصنفاته: «فكرة العارفية» و«الرسالة الوالدية» و«رسالة الحرية»، هذا بالاضافة إلى ما ورد منها في مكاتباته مع عبد الرحمن جامي، ونوائي، وغيرهما.

إلى تشاغانيان، في قرية خولجوت، وهناك زار الشيخ مولانا يعقوب شارخي (توفي عام ١٤٤٧م)، تلميذ بهاء الدين النقشبندي، وانخرط في سلك الصوفية، وأخذ عليه العهد، وبهذا اعتبر خليفته مدى الحياة. وعندما عاد عبيد الله أحرار إلى طشقند، اشتغل بالزراعة، وفي مستهل فترة حكم مرزا عبد الله (١٤٥٠ ـ ١٤٥١م)، سافر من جديد إلى سمرقند، ولما لم يوفق لدى الميرزا، عاد أدراجه الى طشقند. وعند مجيء السلطان أبي سعيد الى الحكم في عام ١٤٥١م، كان الحاج عبيد الله في سمرقند خلال الأعوام من ١٤٥٢ الى ١٤٥٤م، مقيما في حي خوجة كغشير. وبدأ منذ ذلك الحين تنامي تأثيره الايجابي في الحياة الاجتماعية والسياسية، إبان حكم التيموريين. وتوفي ـ رحمه الله ـ بعد أحد عشر يوماً من شهر فبراير عام ١٤٩٠م، ودفن في مقابر حي خوجه كغشير.

وفي تميّز واضح عن سابقيه، حض الحاج عبيد الله الدراويش على المساهمة النشطة في الحياة، والاهتمام بالانشطة البناءة المفيدة التي تعود بالخير على عامة المسلمين. وقد أخذ على عاتقه حماية المسلمين من العنت والتعسف، ورأى أن تحقيق هذه الحماية إنّما يتأتّى من الاتّصال المستمرّ بالملوك وحوز ثقتهم. ولم يبخل في سبيل ذلك بالوقت أو بالجهد أو بالمال. وتورد المراجع شواهد عديدة على ذلك، نورد منها: كان الحاج أحرار واحداً من أغنياء زمانه، إذ امتلك أكثر من ١٣٠٠ موقع زراعي، بالاضافة إلى الكثير من الحوانيت التجارية، ومشاغل المنتجات الحرفية، في كبريات مدن ما وراء النهر، وجابت قوافله الكثير من بلدان العالم. وقد أنفق جل ايرادات هذه الأملاك على عمارة المساجد، وبناء المدارس، والخانات، وغيرها من أعمال الخير ابتغاء لمرضاة الله، وفي مساعدة المساكين والأيتام. وفي «مناقب الحاج أحرار»، يروي المؤلف حقائق عن واقع أعماله، فمرة فرض عمر شيخ ميرزا ضريبة على أهل طشقند بمبلغ مائتين وخمسين ألف دينار، عجزوا عن دفعها، وخشوا مغبة ذلك، فأنقذهم شيخهم أحرار من هذه المحنة، ودفع عنهم عجزهم من حر ماله وزاد عليه سبعين ألفاً. وتكررت مثل هذه الواقعة مع السلطان أحمد ميرزا، عندما نضب لديه المال، فوضع على السمرقنديين ضريبة باهظة، فقام الحاج أحرار بتقديم عشرة آلاف مثقال من الفضة. وفي عام ١٤٥٤م، أغار أبو القاسم بابور (١٤٤٩ -

الفصل الثاني عشر

آسيا الوسطى في مرحلة التفكك الاقطاعي

ادت النزاعات الاقطاعية والخلافات بين افراد الاسرة الحاكمة، التي بدأت فوراً بعد وفاة سلطان أبي سعيد (عام ١٤٦٩م)، الى تقويض أركان الدولة التيمورية التي كانت دولة موحدة، تقويضاً نهائياً. وفي نهاية ق ١٥م فقد التيموريون، الذين حكموا فرغانة (عمر شيخ وبابور)، سمرقند (سلطان احمد)، وحصار (سلطان محمود ميرزا)، السلطة السياسية بصورة نهائية، وأصبحوا ألعوبة في أيدي الأمراء الاقطاعيين ذوي السلطة المطلقة امثال: محمد مزيد طرخان، درويش محمد طرخان، محمد باقي طرخان، سلطان احمد تنبل وغيرهم. وكانوا يتصرفون وكأنهم الملوك، ويناوئ أحدهم الآخر ويعاديه، وورطوا في هذه النزاعات والحروب حكام داشتي كيبتشاك ومنغولستان (دولة من القبائل الرحل، تأسست في اربعينات ق ـ ١٤م بعد تصدع اولوس جغتاي).

واستغل خان منغولستان، يونس خان (١٤٦٢ ـ ١٤٨٧م) نزاع حكام فرغانة وسمرقند التيموريين، وقام في سبعينات ق ١٥م بالاستيلاء على إمارة فرغانة التيمورية وطشقند، ذات الأهمية السياسية الاقتصادية والاستراتيجية. وجعل من طشقند مقراً رئيسياً له.

لقد استفاد كثيراً من عدم الاستقرار الاجتماعي والسياسي في دولة التيموريين حاكما داشتي كيبتشاك، ابو الخير خان وشيباني خان. فمثلاً، قام أبو الخير خان

خليل ـ حاكم «بولدومساز» ـ ووجهاء المدينة ونبلاؤها بتقديم الهدايا الثمينة ومفاتيح بوابات المدينة إلى شيباني خان. في حين قام اوزبكيو داشتي كيبتشاك بالاستيلاء على «اداك» ومن هناك راحوا يشنون الغارات، من حين لآخر، على أواسط استراباد وأعماقها.

وسرعان ما استدعى شيباني خان سلطان أحمد ميرزا التيموري للخدمة لديه، مقرراً الاستفادة من خدماته في نضاله ضد سلطان محمود خان، حاكم طشقند (المقتول عام ١٥٠٣م)، وابن يونس خان الآنف ذكره. بيد انهما اختلفا في نهاية المطاف. وفي العام ١٤٨٣م، وفي اثناء اجتياز الجيوش نهر تشيرتشيك، ترك شيباني خان وليّه وانضم إلى عدوه سلطان محمود خان. وفيما بعد، وبمساعدة سلطان محمود خان هذا، تمكن من احتلال المدن ـ القلاع الهامة على نهر سرداريا: اركوك، اوزغيند، سيغناك، وساوران، واتخذها فيما بعد كرأس جسر لاحتلال بلاد ما وراء النهر، وغيرها من الأراضي التابعة للتيموريين.

غزوات شيباني خان

كانت الاوضاع السياسية الداخلية في ما وراء النهر وخراسان في حالة يرثى لها عشية غزو الأوزبك الرحّل وشيباني خان لها. وبادئ ذي بدء، وكما سبق أن أشرنا آنفاً، كانت الدولة التيمورية في حالة تفتت وانقسام.

توفي سلطان أحمد في منتصف شهر شوال ٨٩٩هـ ـ ٢٠ يوليو ١٤٩٤م في اورا ـ تيبا، إبان عودته من حملته على انديجان. واعتلى العرش من بعده أخوه سلطان محمود ميرزا، الذي كان قبل ذلك (منذ عام ١٤٦٩م) حاكماً على مناطق ترمذ، تشاغانيان، حصار، خوتّالان، كوندوز، باغلان وبادخشان. ولدى توليه عرش سمرقند، قام بإعطاء ضيعته السابقة سويورغالنيي لسلطان مسعود، ومنح بخارى لميرزا بايسنكور، مقاسماً إيّاهما، هكذا، السلطة السياسية في ما وراء النهر. ولم يكد يمضي نصف عام، حتى توفي في ظروف غامضة في شهر ربيع الاول ٨٩٩هـ (ديسمبر ١٤٩٤م)، عن عمر لم يجاوز ٤٨ سنة.

(١٤٢٨ ـ ١٤٦٨م)، الذي كان مقر قيادته الرئيسية آنذاك في مدينة سغناق الواقعة في اواسط وادي سرداريا، في عام ١٤٤٨م، مستغلاً غياب أولوغ عن ما وراء النهر (كان آنذاك في خراسان) باكتساح ما وراء النهر، حيث سلب ونهب العديد من المناطق، ووصل حتى ضفاف امودايا. وقام ايضاً، عام ١٤٥١م، بتقديم دعم عسكري للسلطان أبي سعيد في نضاله ضد ميرزا عبد الله (١٤٥٠ ـ ١٤٥١م)، وساعده في ترسيخ اقدامه وتثبيت عرشه وتعزيزه في سمرقند.

وفي صيف ١٤٦٠م، قام أبو الخير خان هذا، بمؤازرة محمد جوكي ـ حفيد ميرزا أولوغ بك ـ ايضاً، المطالب بعرش سمرقند آنذاك، بمساعدة القوات الاوزبكية بقيادة بورك ـ سلطان وبيشكاد اوغلان. وقد استولى محمد جوكي على مدن: ياسي (تركستان) وسايرام وأخسيكيت و طشقند وشاهروخيا؛ أي إنه، باختصار، استطاع الاستيلاء على بلاد ما وراء النهر برمتها تقريباً خلال فترة قصيرة جداً.

وذكر مسعود بن عثمان الكوهستاني، كاتب سيرة حياة ابي الخير خان، أن ولايات ما وراء النهر كافة سقطت في قبضة محمد جوكي، باستثناء سمرقند، بخارى، وبعض المدن المحصنة والقلاع. وبفضل خوجا عبيد الله احرار، الرجل المحب للسلام وذي السمعة والاعتبار، وشيخ الاسلام خوجا برهان الدين، استطاع أبو سعيد اخماد تمرد محمد جوكي بطريقة سلمية.

ولعب حفيد ابي الخير خان الآنف ذكره شيباني خان (١٤٥١ـ ١٥١٠م)، دوراً هاماً حاسماً في مصير دولة التيموريين.

ففي مطلع ثمانينات ق ـ ١٥م، ظهر مع مجموعة من أنصاره ومواليه في خوارزم، التي كان يحكمها آنئذ التيموري سلطان حسين (١٤٧٠ ـ ١٥٠٦م)، واستولى على حصن «تيرساك» حيث ترك هناك حامية ثم توجه إلى اورغينتش، إلا أنه أخفق في احتلالها واضطر للتقهقر والانسحاب بضغط من جيش الأمير عبد الخالق المؤلف من عشرين ألف مقاتل، أرسله سلطان حسين لمواجهته. ولئن أخفق في ذلك، فإنه استطاع الاستيلاء على حصن آخر حصن «بولدومسان». وقام الأمير

جاء بحملتين فاشلتين وعاد دون التمكن من الاستيلاء عليها (أي على كوندوز)».

وبعد ذلك، ورّط سلطان حسين نفسه في نزاعات جانبية، لا ضرورة لها ولا حاجة، مع أبنائه الذين كانوا حكّاماً على بعض ولايات امبراطوريته وهم: بديع الزمان (بلخ) ومحمد حسين (استراباد) وأبو المحسن ميرزا (مرو وشاهي جيهان) ومحمد محسن ميرزا (ابو ورد) وغيرهم.

باختصار، أخذت امبراطورية سلطان حسين التي كانت امبراطورية موحّدة، تذوي من يوم لآخر. وقبيل عام ١٥٠٢م، كانت قد انفصلت عنها، كلياً، سيستان التي أصبح حاكمها وسيدها المطلق الأمير زنون ـ ارغين، حيث هزم الجيش المرسل ضده، وأصيب قائده ابن حسين ميرزا بجراح بليغة، وفرّ من بقي سالماً من أفراده إلى هراة.

انتهز شيباني خان الازمة والمصاعب التي يعاني منها التيموريون، وبادر في عام ١٤٩٨م إلى ارسال جيش إلى ما وراء النهر، بدون أن تتحقق الأهداف المرجوة، ولم يستطع ترسيخ أقدامه في البلاد، إذ قوبل بمقاومة عنيفة في بخارى وفي سمرقند بشكل خاص. صحيح أن شيباني خان تمكن آنذاك من احتلال نسف (كارشي) وكيش (شهرسابز)، إلا أنّ الأوزبك الرحّل لم يستطيعوا مواصلة التقدم وإحراز النجاحات، فقام شيباني خان بنهب نسف وكيش والمناطق الأخرى، وقفل عائداً الى بلاده داشتي كيبتشاك. ورغم هذا كان ذلك مجرد عملية استطلاع عسكري نوعية أظهرت لحكام داشتي ـ كيبتشاك أنّ احتلال ما وراء النهر والضياع التيمورية الأخرى، أمر ممكن جداً.

وفي مطلع ربيع الاول ٩٠٦هـ (٢٥ سبتمبر ١٥٠٠م) قام الاوزبك الرحّل وشيباني خان بحملة ثانية على ما وراء النهر. وكانت حملة أعدت بإحكام ودرست من جميع جوانبها وتفاصيلها .

ولكن في تلك الفترة التي حاصر فيها شيباني خان سمرقند من جميع الجهات، وصل نبأ تحرك محمد باقي طرخان، حاكم بخارى، لنجدة المحاصرين، فاضطر

وقد أدت وفاة سلطان محمود إلى ازدياد حدة نزاع التيموريين على العرش. ونقلاً عمّا ذكره بابور، كان من بين المتنازعين على العرش والمطالبين به مالك محمود ميرزا بن مينوتشيهرا ميرزا، وشقيق سلطان أبي سعيد المعروف بعض الشيء. وتولى العرش بايسنكور ـ ميرزا. الأمر الذي لم يرض به سلطان علي ميرزا والموالون له. وهكذا في العام ٩٠٠ ـ ١٤٩٥م برزت كتلتان متعاديتان متناحرتان، وانضم قسم من كبار المسؤولين والأمراء ذوي النفوذ أمثال: أحمد حاجي بك، محمد قولي كاوتشين، حسن شراباتجي وغيرهم، وعلى رأسهم شيخ الاسلام خوجا ابو المكارم، الى جانب سلطان بايسنكور، في حين انضم الى سلطان ميرزا علي امراء طرخان: درويش محمد ومحمد مزيد وباقي طرخان وغيرهم، الذين كان يتزعمهم خوجا محمد يحيى بن عبيد الله احرار وخليفته. وفي هذه الفترة بالتحديد، وفي سمرقند ثار سلطان محمود خان ـ حاكم طشقند ـ على سلطان بايسنكور. إلاّ أنّ ثورته أخمدت وقضي عليها في معركة دموية جرت في منطقة كونباي دولدي.

وبعد ذلك، اندلع الصراع على العرش بين الكتلتين الآنفتي الذكر ـ أي بين بايسنكور وسلطان علي ميرزا. الأمر الذي استغله السياسي الذكي الماكر خسروشاه. فخلال الفترة من ١٤٩٧ و١٤٩٩م، قضى وبالتوالي على سلطان مسعود ميرزا وبايسنكور ميرزا، واستولى على مناطق حصار، خوتالان، بادخشان، باغلان وكوندوز، تلك المناطق الغنية الثرية المترامية الاطراف.

ولم يستطع سلطان حسين، الذي كان يعد من اعظم التيموريين واكثرهم خبرة وتجربة، السيطرة على الأوضاع.ففي العام ١٤٩٥م، سيَّر جيشاً جرّاراً إلى منطقة حصار لمحاربة سلطان مسعود، وإلى كوندوز لمحاربة خسروشاه.إلا أنه لم يتمكن من التغلب عليهما، لقد فرّ سلطان مسعود إلى شهر سابز ناجياً بنفسه، في حين ألحق خسروشاه خسائر جسيمة فادحة بالقوات المرسلة ضده بقيادة مظفر حسين وفريدون حسين وبديع الزمان ميرزا. كذلك أخفقت الحملة التي ترأسها سلطان حسين شخصياً إلى كوندوز. وأشار بابور، ببالغ من الأسف إلى ذلك، قائلاً: «إن سبب صعود نجم خسروشاه عالياً إلى هذا الحد يعود إلى أن سلطان حسين ميرزا

الأوزبكي، اقتداء بسلطان علي ميرزا وفي اثره. وهكذا، استسلمت المدينة ووقعت في يد محتلها الجديد، أعدم سلطان علي ميرزا وخوجا محمد يحيى، وصودرت أموال التيموريين واقربائهم وممتلكاتهم. وعين شيباني خان جانوار ميرزا ـ أحد الامراء المخلصين له ـ حاكماً للمدينة. أما شيباني خان نفسه فتمركز بقواته الرئيسة خارج المدينة في بستان تيمور باغي بيخيشت في «كاينغيل»، وفي القرى المجاورة.

ولكن سرعان ما دبرت مؤامرة ضد المحتل، ترأسها رجل الدين السمرقندي المشهور خوجا أبو المكارم، الذي اتفق، سراً، مع بابور. وذات ليلة فتح رجاله بوابة المدينة لقوات بابور التي قضت على حامية أوزبكية مؤلفة من ٦٠٠ جندي. لم يستطع شيباني خان القضاء على المؤامرة واعادة النظام والاستقرار إلى المدينة. كما تعرضت للهجوم والقتل حاميات أوزبكية أخرى كانت متمركزة في بعض المدن الأخرى، إذ إن الهجوم كان شاملاً، ولم يبق أمام شيباني خان سوى أن يحمل عصاه على كاهله، ويتقهقر ميمماً شطر تركستان. وما لبث أن اعترف بسلطة بابور ليس فقط على مناطق سمرقند، بل على المدن المحصنة أيضاً مثل كيش ونسف وخوزار.

الا أن بابور لم يستطع ترسيخ اقدامه في سمرقند، إذ سرعان ما نفذت المواد الغذائية والمؤن، ولم تصل أي امدادات، ودبت المجاعة والغلاء. ويتذكر بابور: «حينما استولينا، بصعوبة بالغة، على سمرقند، ولمجرد دخولنا المدينة، نال المقاتلون بعض الغنائم (وسرعان) ما نفذت غنائم المقاتلين. بعد احتلال سمرقند كانت المدينة في حالة فقر مدقع يرثى له، حتى إن السكان كانوا بحاجة إلى الحبوب والقروض المالية... وفيما بعد عانى الجنود من العوز الشديد، أما نحن فلم نستطع أن نقدم لهم شيئاً». ويستطرد: «آن موعد نضوج الحنطة، إلا أن أحداً لم يجلب (إلى سمرقند) شيئاً من الحنطة الجديدة».

اغتنم شيباني خان هذه الاوضاع، وسارع بالتحرك الى سمرقند على رأس جيش كبير مزوّد بالعدة والعتاد بصورة جيدة. أما التيموريون المنشغلون في النزاعات والخلافات، فلم يتّحدوا في هذه المرة ايضاً. «كنا نعتمد على مساعدة وعون أمراء وحكام البلدان المجاورة منها والبعيدة، ـ يقول بابور متذمراً، ـ إلا أن كلّ واحد

شيباني خان إلى رفع الحصار والتوجه للقاء القوات المقاومة من بخارى. والتقى جيشا شيباني خان ومحمد باقي طرخان في موقعة دابوسيا (مدينة ـ حصن قديمة تقع قرب محطة سكة الحديد المعروفة حالياً بمحطة ضياء الدين)، حيث هزم فيها باقي طرخان ولجأ مع ما تبقى من قواته إلى الحصن للتواري وراء اسواره. لم يقم شيباني خان بمحاصرته، بل سارع إلى بخارى واستولى عليها بعد حصار ثلاثة أيام (في نهاية ذي العقدة ٩٠٦هـ (١٧ يونيو ١٥٠١م). وبعد أن ولّى على المدينة والمنطقة صديقه (محمود سلطان)، توجه شيباني خان إلى سمرقند. ولما سمع بذلك الأمراء والوجهاء المناوئون لسلطان علي ميرزا، انطلقوا هاربين من سمرقند واستنجدوا ببابور وخان ميرزا (سلطان عويس ميرزا)، المقيم آنذاك في طشقند. وهرع المطالبون بالسلطة العليا إلى سمرقند وكان شيباني خان من ضمنهم أيضاً. بَيْدَ أنّه ما كاد يصل الى تاتكنت (منطقة تقع بين كاتّا ـ كورغان وخاترتشي)، متجهاً الى سمرقند، حتّى تلقّى نبأً سيئاً من بخارى جاء فيه أن وجهاء المدينة ثاروا على الوالي الشيباني، ونووا تسليم المدينة إلى محمد باقي طرخان الموجود بجيشه على مقربة من المدينة. خاف شيباني خان أن يفقد هذه المدينة ذات الأهمية الاستراتيجية، فعاد لمعاقبة مدبري التمرد والثورة، ثم اتجه الى سمرقند. وفي طريقه إلى سمرقند قضى على ثورة اندلعت في كاراكول، التي منحها لأحد السلاطين الشيبانيين ألا وهو بوباي ـ سلطان (ابن محمد سلطان وحفيد ابي الخير خان).

في تلك الاثناء، كان صراع حاد على السلطة يجري في سمرقند نفسها، على أن خوجا محمد يحيى وغيره من الوجهاء ذوي النفوذ قطعوا على أنفسهم عهداً بمساعدة سلطان علي ميرزا. وفي الوقت نفسه قام خوجا محمد يحيى بإجراء اتصالات سرية مع بابور، الذي كان متمركزاً بجيش كبير في شهر سابز. ولم يكن الأمر مهمّاً بالنسبة للايشان فيما يتعلق بمن سيتولى عرش تيمور. ولم يكن يهمه سوى الاحتفاظ بمكانته ووضعه الاجتماعي. ولما علم سلطان علي ميرزا بذلك، أعلن هو وحاشيته الولاء لشيباني خان، وأعطاه مفاتيح بوابات المدينة.

حاول خوجا محمد يحيى تعبئة الأهالي للدفاع عن المدينة، إلا أنه لم يلق تأييداً منهم. وناهيك من ذلك أيضاً، سارع وجهاء المدينة، وأعلنوا طاعتهم وولاءهم للخان

واتّجه صوب كارشي. ولكن، نقلاً عن صاحب كتاب «زبدة العصر»، تشتت قواته في الطريق لأسباب ما، فاضطر إلى العودة إلى «حصار». الا انه خشي قدوم الاوزبك الرحل، وفرّ من «حصار» وانتقل الى الضفة اليسرى لنهر امودريا، ومن ثم عبر «ايواج» إلى آرخانغ سراي حيث اتحد مع التيموري بديع الزمان ميرزا. ولاحقت قوات الشيباني خسروشاه حتى ارخانغ سراي وعادت بالكثير من الغنائم الثمينة.

ونقلاً عن ميرزا محمد حيدر، فإن شيباني خان لم يترك «حصار»، رغم العواصف الثلجية الشديدة (شتاء ١٥٠١ ـ ١٥٠٢م) بل حاصر حصنها الرئيسي الواقع في منطقة «حصاري شادمان» حيث لجأ سلطان قولي خان، أحد أمناء خسروشاه. واستمر الحصار طيلة فصل الشتاء. ولم تستطع القوات التي قدمت من خراسان لمساعدته بقيادة أمير والي، شقيق خسروشاه، اختراق الحصن أو إنقاذ المحاصرين، ومنيت بالهزيمة عند مشارف الحصن. ولكن، قبيل ربيع ١٥٠٢م، قامت القوات الشيبانية، التي أقلقتها تحرّكات المغول على ضفة سرداريا، بترك «حصاري شادمان»، وعادت إلى سمرقند.

بدأت حملة شيباني خان على سرداريا وفرغانة عام ١٥٠٣م، في أواخر فصل الشتاء. وفي اورا ـ تيبا هزُم محمد حسين جرجان على أيدي الأوزبك الرحّل، الذين سارعوا، بعد ذلك، بالتحرّك صوب أعالي سرداريا، وادركوا قوات المغول الموحّدة (سلطان احمد وسلطان محمود خان وبابور) وحلفاءهم القالميق، قرب مدينة ارخيان حيث ألحقوا بهم هزيمة ساحقة واحتلوا طشقند وشاهروخيا وغيرهما من المدن.

وجاء دور خراسان. أدرك سلطان حسين مدى الخطر المحدق في البلاد، إلا أن مرضه وعجزه، اضافة إلى انشغاله بابنائه المتمردين، عوامل منعته من المشاركة في محاربة شيباني خان. لذا وقعت أعباء الحرب كافة ضد الأوزبك الرحّل على كاهل بديع الزمان ميرزا، الذي حاول إقامة اتحاد مع خسروشاه والأمير زنون ارغين، حاكم قندهار، ضد الأوزبك الرحّل وشيباني خان، وتم الاتفاق معهما في نهاية ابريل ١٥٠٣م. وسار بقوات بلخ إلى ترمذ، حيث كان ينبغي للحلفاء الاتحاد

منهم كانت له خططه الخاصة. ولم نر من سلطان حسين ميرزا، الملك الفائق الشجاعة والخبرة والحنكة، أية مساعدة، حتى إنه لم يرسل لنا مبعوثاً لتشجيعنا ورفع معنوياتنا، بينما أرسل إلى شيباني خان مبعوثه كمال الدين غازورغاخي، إبان محاصرة سمرقند».

باختصار، جمع بابور قواته، على عجل، وخرج من المدينة واتخذ مواقعه على ضفة زرافشان، وتأهّب للقتال. بَيْدَ أن النصر كان حليف شيباني خان والاوزبك الرحل. أما بابور فعاد متقهقراً، وتحصن خلف أسوار المدينة الحصينة. جرت تلك الأحداث في شهر ابريل ١٥٠١م. شدّد الاوزبك الرحّل الحصار المضروب حول المدينة وتوالت هجماتهم التى استمرت ١٢٠ يوماً وليلة. وحلّت بهم مجاعة شديدة. ويقول بابور متذكراً: «استمرت أيام الحصار والناس يتحمّلون الفاقة، لدرجة أن الفقراء والمحتاجين أخذوا يأكلون لحوم الكلاب والحمير». لذا، وإدراكاً منه لعدم جدوى المقاومة، ترك بابور سمرقند، في بداية شهر ربيع الاول ٩٠٧هـ - أواسط سبتمبر عام ١٥٠١م، ولجأ مع ما تبقّى لديه من مقاتلين وخدم، إلى طشقند طالباً الحماية من عمّه سلطان محمد خان. وهكذا، وفي هذه المرة، وقعت سمرقند كلياً، في أيدي الأوزبك الرحّل وشيباني خان.

وبعد أن استتبت له الأمور في سمرقند، سار شيباني خان في إثر بابور الى ضفاف سرداريا. ومتحدثاً عن فراره من سمرقند وقدومه إلى أورا - تيبا، كتب بابور: «بعد استشارة محمد حسين ميرزا (والد المؤرخ ميرزا محمد حيدر - ب. أ) قررت قضاء فصل الشتاء في إحدى القرى القريبة من اورا - تيبا والمعروفة بـ«ديخكات». وبعد ذلك ينتقل إلى الحديث عن ظهور شيباني خان، آنئذ، في ضواحي اورا - تيبا، وأعمال النهب والعنف والفساد التى قام بها هناك. حينذاك، لم يحتل شيباني خان اورا - تيبا، وأسرع عائداً إلى سمرقند لدى سماعه بتحرك خسروشاه الذي انطلق من حصار لمحاربة الأوزبك الرحّل.

وبالفعل كان خسروشاه قد تحرّك على رأس جيش مؤلف من ٥٠ ألف مقاتل لمحاربة شيباني خان، وكان قد اخترق البوابة الحديديّة المشهورة (داري اخانين)،

وأمّا خسروشاه فليترك حصون «حصار» وكوندوز لرجاله الأوفياء الذين يثق بهم وليتحصن هو مع أخيه «والي» في جبال بادخشان وخوتّالان. فلن يستطيع الأوزبك عمل أي شيء، وسيضطرون للتراجع».

كان ذلك خطأ شنيعاً فاحشاً. ففي تلك الأثناء ظهر شيباني خان والأوزبك الرحّل عند أسوار بلخ التي طوقوها من جميع الجوانب. أمّا فرسانه فوصلوا حتى شيبيرغان وكوندوز وباغلان وارخانغ سراي وغيرها من الأماكن. إلا أن الأوزبك لم يستطيعوا، آنذاك، الاستيلاء على بلخ. ولم تُجْدِ المباحثات لإخضاع المدينة بصورة سلمية. ومع حلول فصل الشتاء، رفع شيباني خان الحصار وعاد إلى ما وراء النهر. ويبدو أنّ أسباباً وجيهة كانت قد دفعته إلى القيام بذلك. وكان من اهمها:

١) حلول البرد القارس، ٢) خشيته من تحالف سلطان حسين مع القوى الأخرى وشنه حملة ضخمة، ٣) خشية شيباني خان من خسروشاه المعروف بخبثه ومكره، ٤) سماعه باستعدادات سلطان أحمد تنبل ومحمد خان سلطان طشقند.

لكنّ الاوضاع في فرغانة وطشقند لم تكن تبعث على الخوف أو تهدد بالخطر، بل كانت هادئة ومستقرة نسبياً. ومع ذلك قرر شيباني خان في العام التالي ١٥٠٤ القضاء على أحمد تنبل والمغول، وفي ٢٨ شوال ٩٠٩هـ (١٧ ابريل ١٥٠٤م)، انطلق بقواته الى انديجان حيث قضى على تنبل وعلى خانيْ المغول: سلطان محمود خان وسلطان أحمد خان، واتّخذ الاستعدادت اللازمة لاحتلال خراسان وبلخ بصورة نهائية.

وفي ربيع ١٥٠٥م سار بجيشه إلى حصار وتشاغانيان. لكن ولاة خسروشاه: بيروالي وميروالي والآخرين لم يبدوا أي مقاومة، بل هربوا إلى الضفة الثانية لأموداريا للانضمام إلى خسروشاه، ومن ثم للقيام معاً بمقاومة الأوزبك الرحل. إلا أنهم أصيبوا بخيبة الأمل، ذلك أن خسروشاه نفسه كان قد ترك كوندوز تحت رحمة الأقدار، وفر إلى بالخاب العليا حيث مثل أمام بابور في احدى المناطق الصغيرة المعروفة بـ «دوشي». كما كان قد فرّ محمد باقي - شقيق خسروشاه

ومواصلة الحملة معاً إلى عمق ما وراء النهر. قدم الأمير زنون ارغين إلى ترمذ بفصيلة صغيرة، إلا أنهما لم ينتظرا خسروشاه. يقول خوندمير إنه كان يخشى، إذا انتصر بديع الزمان على شيباني خان، أن يزداد قوة وطمعاً في الاستيلاء على بلاده هو. وعاد الأمير عمر بك رسول بديع الزمان الى هراة صفر اليدين. لم تكن هناك، والحالة هذه، أي جدوى للحملة على شيباني خان، فعاد الحلفاء إلى بلادهم: عاد بديع الزمان ميرزا إلى بلخ، والأمير زنون إلى قندهار. كان تصرّف التيموريين، بحسب تعبير ميرخاوند: «عبارة عن فقدان تام لسمعتهم واعتبارهم، ما أدّى الى مختلف أنواع الاضطرابات، وشجع شيباني خان على مواصلة نشاطاته العسكرية».

اغتنم شيباني خان هذه الفرصة، وفي مطلع خريف ٩٠٩هـ - سبتمبر ١٥٠٣م، عبر أموداريا من خلال كيركي، واجتاح خراسان. كما إن باقي محمد طرخان لم يقاومه وسلم اندخود للاوزبك الرحل.

أما بديع الزمان، فكان، قبل اجتياز الاوزبك الرحّل امودايا، قد ترك بلخ ولجأ إلى غورزوان المحصنة الواقعة في ثغر «جوز». يبدو أن خطّة توزيع القوى ومحاربة الأوزبك الرحّل على غرار الأنصار أو الفدائيين، كانت تعود إلى سلطان حسين شخصياً. فمثلاً، ذكر بابور ما يلي: «عن سلطان حسين ميرزا وردت إلى بديع الزمان ميرزا وإليّ وإلى خسروشاه وإلى أمير زنون وثائق طويلة مسهبة ذات المحتوى نفسه.

وما تزال هذه الوثائق بحوزتي، وجاء فيها ما يلي: «حينما اتفق سلطان أحمد ميرزا وسلطان محمود ميرزا وأولوغ بك ميرزا وإخوانهم، وتحرّكوا نحوي، تحصنت على ضفة مرغاب، ولما اقتربوا عن كثب لم يستطيعوا عمل شيء واضطروا إلى التراجع. والآن، إذا أعاد الاوزبك الكرّة، فإنني سأتحصّن ثانية على ضفة مرغاب. فليبقِ بديع الزمان ميرزا الرجال الأقوياء في حصون بلخ وشبيرغان واندخود، أمّا هو فليحصّنْ غورزوان وداراي زانغ والبلاد الجبلية كافة. في حين كتب إلي قائلاً: «أمّا أنت فقم بتحصين كاخميرد وآجار، والمنطقة الجبلية بكاملها،

هذه المرة، يقيمان احتفالاً بهذه المناسبة، قام شيباني خان في شتاء ١٥٠٥م بمهاجمة خوارزم التابعة لسلطة التيموريين. صحيح أن الأوزبك الرحّل فيها (ولا سيما تورتكول واورغينتش) ابدوا مقاومة عنيفة، لكن خوارزم لم تتلق من سلطان حسين ما توقعته من دعم ومساعدة. واستمر تشين ـ صوفي في مقاومة هجمات الغزاة وصد هجماتهم لمدة ١٥ شهراً. إلى أن ضعفت قواهم ونفد ما لديهم من احتياطيٍّ المؤن والمواد الغذائية.

وكما جاء في كتاب «زبدة العصر»، أخذ الناس يموتون جوعاً في أورغينتش المحاصرة، وإضافة إلى ذلك أخذ أمراء تشين صوفي يفرون مع رجالهم وينضمون إلى الأوزبك الرحّل، وقد أدّى ذلك كلّه إلى سقوط عاصمة خوارزم، وقتل تشين صوفي على ايدي حرسه الخاص «بسهم ذي ازين» أصابه في ظهره».

ولّى شيباني خان على خوارزم كيباك بي كوستشي وقفل عائداً إلى ما وراء النهر.

لم يستطع سلطان حسين توحيد القوى التيمورية كافة تحت رايته خلال عام ١٥٠٥م ايضاً. وفي فبراير عام ١٥٠٥م أعلن عن تحديد ضفة نهر «مرغاب» مكانا لاجتماع الجيوش التيمورية كافة، وسار بديع الزمان ومظفر حسين ميرزا لمواجهة العدو. وكان من المقرر أن يأتي بابور إلى هناك قادماً من كابول، إلا أنه لم يأت. أما مظفر حسين فطلب اليه العودة إلى هراة لسبب ما. وسرعان ما غادر بديع الزمان بدوره المخيم متجهاً إلى بلخاب بحجة جمع قوات جديدة.

أما شيباني خان، الذي تتبع هذه الأمور كافة، فقرّر إجراء اختبار آخر للقوى. وأرسل في اغسطس ١٥٠٥م جيشاً الى خراسان، وعمل نهباً وسلباً في قريتي «ميمنة» و«فارياب» المجاورتين لخراسان، وتمكن في الجولة الاولى من سحق محمد قاسم ـ ميرزا، وشيرين جالاير والأمير باباجان الذين هبوا للدفاع عن هاتين المدينتين.

عندئذ فقط، أدرك سلطان حسين الخطأ الذي ارتكبه بحق بديع الزمان. ويقول

الأصغر وحاكم تشاغانيان. إلا أن عدداً من حاميات خسروشاه الصغيرة كانت قد بقيت في بعض حصون حصار وتشاغانيان.

لذا قرر شيباني خان البقاء مع حمزة سلطان على الضفة اليمنى لأموداريا، في حين عبرت إلى الضفة اليسرى جيوش محمود سلطان ومحمد تيمور سلطان وغيرهما، وقد كلفت باحتلال باغلان وكوندوز وغيرهما من المناطق الخاضعة لسلطة خسروشاه.

وبدون أي صعوبات، انتقلت جيوش شيباني إلى الضفة اليسرى واستولت على كوندوز وباغلان وأرخانغ ـ سراي وجزء من بادخشان، كما استولت من ضمن ما استولت، على ايشكاميش وفرخار.

ولّى شيباني خان أقرباءه المقرّبين على المناطق المحتلة: فأعطى فرغانة إلى جانبيك سلطان، وطشقند إلى سويونتش خوجاخان، وتركستان إلى كوتشكونتشي خان، و«حصار» إلى حمزة سلطان، وتشاغانيان إلى مهدي سلطان، أما كوندوز والجزء المحتل من بادخشان فولّى عليهما محمود سلطان.

صحيح أن الموت المفاجئ لمحمود سلطان في كوندوز(في اوائل شتاء ١٥٠٥م) أدى إلى فقدان الأوزبك الرحّل لبادخشان، إذ انتزع شاهات بادخشان(مبارك شاه راجي) حصن «ظفر» من الأوزبك الرحل. واستولى محمد كورتشي ـ سلاحدار خسروشاه سابقاً ـ على روستاك، ثم قتل مبارك شاه واحتل حصن «ظفر»، عاصمة بادخشان. وقرر خسروشاه استغلال هذه الاوضاع، فقام في شهر محرم ٩١٠هـ (يونيو ـ يوليو ١٥٠٥م) بالتحرك إلى كوندوز، في حين نقل كانباربي ـ والي كوندوز الجديد ـ هذا النبأ إلى سلاطين الشيبانيين في «حصار»: حمزة ـ سلطان ومطلب ـ سلطان وغيرهم من القادة الشيبانيين العسكريين، الذين سارعوا إلى تجميع قواهم وحشدها في «سالي سراي»، وتوجهوا إلى كوندوز. حيث أسروا خسروشاه وسحقوا جيشه، ثم أجلسوه على حمار، ظهراً لوجه، ودهنوا وجهه بالفحم وطافوا به في أنحاء المدينة كافة مشهّرين به، وبعد ذلك قطعوا رأسه.

وعندما كان بديع الزمان وسلطان حسين، اللذان تصالحا بشكل نهائي وتام في

وفشل في بلوغ الهدف. بعد ذلك باشر الطرفان بحشد قواتهما. وتمكن شيباني خان من الوصول بقواته الرئيسة إلى ضفاف أموداريا، قبل وصول خصومه. أما بديع الزمان فحدّد ضفة نهر «مرغاب» مكاناً لتجمّع القوّات، بينما الرسول الأوزبكي احتجزه وأخّره في «هراة». ونقلاً عن بابور، فقد كان التيموريون متباطئين في استعداداتهم، إذ إن حشد القوات وحده استغرق منهم زهاء أربعة اشهر، أمّا «الميرزاوات - «جمع ميرزا» أنفسهم فقد أمضوا الوقت في الاجتماعات غير الضرورية وتبادل الزيارات واللهو والشرب.

في حين، قام شيباني خان، في مطلع جمادى الاولى ٩١٢هـ (١٩ سبتمبر ١٥٠٦م)، بتطويق أسوار بلخ من الجهات كافة، أرسل سلطان كيلينجاك - كوتڤال (ممثل) - بلخ رسولاً إلى «مرغاب»، وأطلع الميرزاوات على الوضع الناجم. إلا أن الميرزاوات التيموريين، الذين كانت لديهم قوات كافية، أبدوا تردّدهم وافتقارهم إلى عنصر المبادرة. اما الاجتماع، الذي عقدوه بعد وصول الرسول، فقد اقتصر على مجادلات ومناقشات باطلة متواصلة لا نهاية لها. باختصار لم تتلق بلخ اي مساعدة أو عون. وفي ظل هذه الظروف، اضطر سلطان كيلينجاك، الذي استبد به اليأس بعد حصار استمر اربعة أشهر، إلى تسليم المدينة إلى الأوزبك الرحل. ووفقاً لما ذكره سلطان محمد البلخي، جرى ذلك في ١٥ جمادى الآخرة عام ٩١٢هـ (٥ نوفمبر ١٥٠٦م). عيّن شيباني خان كانبارا ميرزا والياً على بلخ، وعاد إلى سمرقند، مكتفياً بما أحرزه من انتصارات. ومع ذلك ظل الميرزاوات التيموريون على خمولهم. في حين شن الفرسان الاوزبك غارات جريئة حتى إنهم كانوا أحياناً يصلون الى «مرغاب» و«تشيتشيكتو». باختصار، وللأسف الشديد، لم يقم الميرزاوات التيموريون بمقاومة الأوزبك الرحّل، بل حتى إنهم قاموا في بداية شهر رجب ٩١٢هـ (١٧ نوفمبر ١٥٠٦م) بترك مواقعهم على ضفة «مرغاب» وعادوا إلى ديارهم، مؤجّلين الحملة ضد الأوزبك الرحّل حتى ربيع العام التالي (١٥٠٧م). لقد أمضوا طوال خريف وشتاء عامي ١٥٠٦ - ١٥٠٧م في اللهو والتسلية والترفيه عن أنفسهم. وخلاصة القول، إن التيموريين أخفقوا في عام ١٥٠٧م مرة أخرى،

خوندمير إن السلطان العجوز الهرم ندم ندماً شديداً لإجحافه السابق وسوء معاملته لابنه الاكبر، وقرر استدعاءه إلى هراة وتسليمه طليعة جيشه ومقدمته، فأرسل إلى قندهار خوجا شمس الدين محمد منشي، الوجيه الذي يتمتع بنفوذ في قصر هراة. ثم أرسل زنون ـ أرغين إلى زامينداوار، مكلفاً اياه بالقدوم إلى «مرغاب» قبيل بداية ربيع ١٥٠٦م. ذهب بديع الزمان إلى هراة حيث مكث فيها عشرين يوماً، وفي مارس ١٥٠٦م، اتجه إلى «مرغاب» ومكث فيها حتى نهاية مارس ١٥٠٦م، وقبيل بداية شهر ابريل، سافر إلى ساريبول تابان حيث راح ينتظر وصول والده بالقوات الأساسية. صحيح أن سلطان حسين كان قد غادر هراة في منتصف شهر ذي القعدة ٩١١هـ (١١ ابريل ١٥٠٦م) ، إلا أنه لم يصل إلا إلى منطقة «بابا الله»، إذ اشتد به المرض وتوفي في ١١ ذي الحجة ٩١١هـ (٧ مايو ١٥٠٦م). في الحقيقة كانت البلاد ثنائية السلطة ويديرها بديع الزمان ومظفر حسين، وثارت فيها الاضطرابات والفوضى. وكان ذلك لصالح شيباني خان. وفي نهاية ابريل ١٥٠٦م اجتازت قوات الأوزبك الرحّل نهر أموداريا وسارت حتّى وصلت إلى ميروتشاك. ولم يصل نبأ ذلك إلى هراة الا في شهر المحرم ٩١٢هـ (٢٤ مايو ١٥٠٦م) وأثار ذلك، في بادئ الأمر، الاضطراب والارتباك في الأوساط الحكومية. وأرسل بديع الزمان ضد الاوزبك الرحل الأمير زنون على رأس جيش قوامه ١٢ ألف مقاتل. وكان النصر حليفه، إذ هزم الفرسان الأوزبك في «تشولي زرداك» وطردهم من ميروتشاك. واثبتت العملية العسكرية التي قام بها الأمير زنون أن العدو ليس بالامكان ايقافه فحسب، بل يمكن إلحاق الهزيمة به ايضاً إذا ما توافرت عناصر الوحدة وتراصت الصفوف، الأمر الذي كان، للأسف الشديد، يفتقر اليه التيموريون. إذ تركوا زمام المبادرة، كلياً، بيد شيباني خان، الذي قرر ـ لإخماد وإضعاف يقظة وخدر خلفاء سلطان حسين ـ البدء بإجراء المباحثات والحوار معهم، فأرسل مولانا خاتم إلى هراة. وتذرّع شيباني خان بأن والده ابا الخير خان كان قد ساعد الكثير من التيموريين ومن ضمنهم سلطان حسين، فطالبهم بالتنازل له عن خراسان طواعية وبالتي هي أحسن. بيد أن مولانا خاتم أخفق في إقناع الأمراء،

ميرزا (محمد محسن ميرزا)، وفرّ أبو الباقي ميرزا، وأمير محمد بوروندوك - بارلاس العظيم إلى سابزيوار حيث اتحد مع حسين ميرزا. وبعد قضاء الليل في المدينة، وفي صباح ٢٢ مايو ١٥٠٧م، غادر المدينة ايضاً كلٌّ من بديع الزمان ومظفر حسين ميرزا، ففرّ الاول باتجاه قندهار وزامينداوار، أما الثاني ففرّ الى استراباد، وتركا حتى أمّاهما ونساءهما والاطفال، وألقيا بهم إلى نوائب الدهر وعبث الأقدار.

وهكذا سقطت المدينة الكبيرة الغنية، عاصمة دولة التيموريين، التي تركها أولئك الذين كان عليهم الدفاع عنها حتى آخر قطرة دم والاستماتة في سبيلها، في قبضة المحتل. وإلى اولانغ - كاخديستان، حيث معسكر شيباني خان، ذهب وفد ضم كبار الشخصيات: شيخ الاسلام قوام الدين عطاء الله حسين، الأمراء عبد القاضي وغياث الدين محمد، سيد صدر الدين يونس، القاضي اختيار الدين حسن، القاضي صدر الدين محمد، سيد راضي الدين عبد الله الأول، خوجا جلال الدين عطاء الله وخوجا نظام الدين عبد الله، وقدموا لشيباني خان هدايا ثمينة وسلموه مفتاح بوابة المدينة الخارجية (شاهري بيرون). وفرض على سكان المدينة ضرائب حربية حجمها ١٠٠٠٠٠ تنغة من فئة مثقال واحد و٢٠٠٠٠ تنغة كهبة للخان شخصياً و٥٠٠٠ لمولانا عبد الرحيم تركستان - وزير شيباني خان.

كما حصل شيباني خان ايضاً على الخزينة الغنية التي كانت تعود إلى السلطان حسين واولاده.

وفي يوم الجمعة الموافق ١١ محرم عام ٩١٣هـ (٢٤ مايو ١٥٠٧م) ألقيت في مسجد هراة خطبة أشير فيها الى اسم أبي الخير خان ومحمد شيباني خان.

لكن الحصن الداخلي (شاهري دارون) استمر في مقاومته لمدة ١٦ يوماً، وكان على رأس المدافعين عنه عاشق محمد كوليلتاش وعبد الله باكول وأناس آخرون، وبوشر بمهاجمة المدينة واحتلت خلال أربعة أيام.

وعين شيباني خان الأمير جان وفا ميرزا حاكماً على هراة، وأنعم على البهلوان درويش محمد بمنصب ممثل حصن اختيار الدين.

ولم يتمكنوا من الانضواء تحت راية واحدة. وعلاوة على ذلك، كان كل واحد منهم لا يفكّر إلاّ في مصالحه الشخصية. وهكذا أدى الانقسام والتشتت والاضطرابات السياسية السائدة في بلاد سلطان حسين إلى تمكين شيباني خان والأوزبك الرحل من القيام في بداية شهر محرم ٩١٣هـ (١٣ مايو ١٥٠٧م) بتوجيه ضربة قوية إليهم. وفي مطلع شهر محرم ٩١٣هـ (١٣ مايو ١٥٠٧م) اجتاز شيباني خان نهر امودايا ودخل خراسان. وتجدر الاشارة هنا، إلى أن شيباني خان لم يضطر، في هذه المرة، إلى محاصرة مدن خراسان المحصنة، إذ ما كادت طليعة جيش شيباني خان أن تظهر، حتى قام الأمراء والنبلاء والوجهاء بإعلان ولائهم للشيباني خان وقدموا له مفاتيح بوابة المدينة. وذلك ايضاً ما فعله على سبيل المثال حكام اندخود وميروتشاك. وبعد احتلاله لهذه المدن، اجتاز شيباني خان، بسهولة وبدون اي مصاعب، نهر «مرغاب» ودخل حدود «بادغيس». ونقلاً عن صاحب كتاب «زبدة العصر» لم يتخذ بديع الزمان ومظفر حسين والتيموريون الآخرون التدابير أو الاجراءات اللازمة، وعلاوة على ذلك، لم يلتف الشعب حولهم. ومع ظهور طلائع الأوزبك الرحّل، تفرّق أولئك الذين كانوا معهم. وقام الميرزاوات بدورهم بترك المعسكر والاتجاه نحو هراة. وكانت منطقة «كارابات» الصغيرة وحدها هي التي قاومت الاوزبك الرحل، ولكن سرعان ما أخمدت هذه المقاومة وأسر شيخ علي تاغان، الذي كان يعد من أبرز امراء السلطان حسين، وسقطت في ايدي الجيش الاوزبكي كمّية كبيرة من الغنائم. وذكر خوندمير أن هذه الاحداث وقعت في السابع من شهر المحرم عام ٩١٣هـ، الموافق ٢٠ مايو ١٥٠٧م.

آنذاك، استولى شيباني خان ومحمد تيمور سلطان، بدون أيّ صعوبات أو عراقيل، على توكوز ـ ربض، «ربضي» وغيرها من المناطق، وفي اليوم التالي (٨ محرم ٩١٣هـ ـ ٢١ مايو ١٥٠٧م) كانوا على مشارف هراة.

ويتحدّث خوندمير ـ شاهد عيان هذه الاحداث ـ عن الهرج والمرج اللّذين سادا العاصمة آنذاك، وعن فرار الميرزاوات التيموريين وأمرائهم من العاصمة مذعورين فزعين. فمثلاً، فر سعيد عبد الله ميرزا مع أمرائه إلى مشهد حيث اتحد مع كيباك

الاراضي الشاسعة التي انتقلت سيادتها، بعد وفاة شيباني خان قرب مرو (عام ٩١٦هـ - ١٥١٠م)، إلى أسرة تركية أخرى ألا وهي الأسرة الصفوية، التي بدأت تحركها من «أردبيل» إلى الشرق في بداية ق - ١٦م. واستولت هذه الأسرة على خراسان بدون أي صعوبة تذكر. بدأت حملة الشاه اسماعيل (١٥٠١ - ١٥٢٤م) على خراسان في مطلع شهر رجب ٩١٦هـ (بداية اكتوبر ١٥١٠م)، واثارت ارتباكاً شديداً لا مثيل له لدى واليي شيباني خان - احمد سلطان وخوجا احمد كونغورات في دامغان واسترباد، فهربا إلى دارون ومنها إلى خوارزم، اما حاكما جرجان سيد رافع وبابا نوروز فذهبا بهدايا ثمينة إلى مقر قيادة الشاه اسماعيل في بسطام. وحذا حذوهما خوجا سيف الدين، حاكم اصفراعين. لقد ترك هذا النبأ اسوأ الأثر في نفس شيباني خان، الذي كان في هراة آنذاك، بعد حملته الفاشلة على الكازاريين صيف ٩١٥ - ١٥٠٩م، والغارات الفاشلة على داشتي كيبتشاك عام ١٥٠٨ - ١٥٠٩م، التي يتحدث عنها بالتفصيل روزبهان، بأنها أنهكت قوى الشيباني. وعلاوة على ذلك، ونقلاً عن ميرزا محمد حيدر، صرف شيباني جيشه لفترة الشتاء ولم يبق سوى فصائل حرس صغيرة. وفوق ذلك كله، ساءت علاقة شيباني خان بأقربائه في تلك الفترة نتيجة سلبه بخارى من عبيد الله خان، وتركستان من كوتشكونتشي خان، و«حصار» من حمزة سلطان... الخ «أدى ذلك - يكتب المؤرخ عبد الله نصر الله - إلى استياء الجميع منه». وبالفعل، لم يلبوا نداءه قبل موقعة مرو، وتركوه وحده يواجه العدو الذي كان يفوقه كثيراً قوة وعدداً.

وأسرع الشاه اسماعيل متجهاً نحو هراة، ملحقاً الهزيمة بشيباني خان، ومدمّراً استحكامات حصن مرو، ومعرضاً سكانها كافة للضرب. وعشية السابع من رمضان ٩١٦هـ (٨ ديسمبر ١٥١٠م) كانت وحدات طلائع كيزيلباشي على مشارف عاصمة خراسان. واستسلمت هراة بدون مقاومة.

بعد أن مكث الشتاء في هراة، وعيّن حسين بيك لالاباشي حاكماً (داروغا) على عاصمة خراسان، تحرك الشاه اسماعيل باتجاه بلخ واستولى بسهولة على فارياب وميمنة وغيرهما من مدن بلخ. أما سلاطين بني شيبان الأكثر حيوية ونشاطاً: عبيد

ولم يبق على شيباني خان سوى القيام بخطوة واحدة كي يصبح السيد المطلق على الامبراطورية التيمورية المترامية الاطراف. فأعطى قواته إجازة مدة نصف شهر للاستراحة، وبعد ذلك، تحرك من اولانغ ـ كاخديستان إلى «بولي سالار، ثم أرسل قواته الرئيسية إلى مناطق إيران الغربية: مروى ـ شاه جهان، جام ، مشهد وسابزيوار، بقيادة محمد تيمور سلطان وعبيد الله خان المشتركة، أما شيباني خان نفسه ، فلم يشارك في هذه الحملة وبقي في «بولي سراي» ـ احدى ضواحي هراة.

وبدون أي صعوبات، استطاع السلاطين الشيبانيون احتلال المناطق الآنف ذكرها، واستسلم لهم بدون أي مقاومة او طلقة، حصن نيراتو العظيم الصعب المنال، وجام ومروى ـ شاه جهان. وحّد ابو المحسن ميرزا ومحمد حسن ميرزا قواتهما في مشهد، وحاولا مقاومة الاوزبك الرحل، إلا أنهما سحقا. كما هزم في «سابزيوار» كل من ابن حسين ميرزا وبوروندوك ـ بارلاس. وفي العام التالي (١٥٠٨م) انتزع شيباني خان جرجان من بديع الزمان، و«دان غان» من فريدون حسين. فلجأ بديع الزمان إلى اذربيجان حيث اواه بايرام بيك ـ كاراماندو، أما فريدون فتراجع إلى عطرين.

وبعد توحيده جورجان ودامغان، قام شيباني خان بالإنعام بهما على الأمير أحمد ـ كونغورات، بينما أنعم بسابزيوار على سيد هادي، وبمروى شاه جهان على كانبار علي، و«جام» على الأمير محمد صالح، وبلخ ومحافظتها على ابنه الحدث خرام شاه المولود في عام ١٥٠١ من زوجته خان زادا بيجيم ـ شقيقة ظهير الدين محمد بابور الكبرى.

وهكذا استولى شيباني خان على مساحات شاسعة من الاراضي الواقعة على الضفة اليسرى لأموداريا. وكانت حدود ممتلكاته في خراسان تمتد غرباً محاذية لخط « سيمينان»، وشرقاً حتى بادخشان، وجنوباً حتى منطقتي كاخيندار وغوري الجبليتين في اواسط افغانستان.

إلا أن انشغال شيباني خان الدائم في محاربة الاوزبك ـ الكازاخيين وأبناء قبيلته في داشتي كيبتشاك، وحكام مغولستان، لم يمكنه من الاحتفاظ بهذه

اموداريا اليسرى بكاملها.

امتازت فترة حكم توتشكونتشي خان بالعداوات والخصام بين الشيبانيين انفسهم، وبينهم وبين تحالف وائتلاف بابور وميرزا خان والكيزيلباشي.

إن التنازع على السلطة بين الخان الجديد، ومنازعيه المطالبين بالعرش، ومحمد تيمور سلطان، بدأ فوراً بعد اجلاس توتشكونتشي على العرش. ونقلاً عن عبد الله نصر الله صاحب «زبدة العصر» بدأ محمد تيمور سلطان يقيم علاقات مع الشاه اسماعيل. حتى إنهم، ذات يوم، جاؤوا لزيارته من سفارة الشاه التي كان يترأسها سيدي بيك، وشخص آخر يدعى خوجا محمد.

وفي المباحثات التي جرت بينهم، تطرقوا إلى موضوع السلام والوفاق. «ان ذلك ـ يواصل المؤرخ المعاصر ـ لم يعجب توتشكونتشي خان». وجاء ذكر ذلك أيضاً في كتاب «بحر الاسرار» لمحمد بن والي، الذي قال إن خطوة محمد تيمور سلطان هذه أثارت استياءً شديداً في معسكر توتشكونتشي خان، وقد حذّره الخان بشدة لتصرفه على هواه. في هذه المرة استطاع توتشكونتشي ان يحول دون قيام تحالف محتمل بين الكيزيلباشي ومحمد تيمور سلطان، الذي كانوا بواسطته ينوون جعل بلاد ما وراء النهر تابعة لسيادتهم. ورغم ذلك ظلت الأوضاع سيئة جداً، والاخطار تحدق بالبلاد من الجوانب كافة: فمن الضفة اليسرى لأموداريا، كان بابور وميرزا خان يتأهبان لمحاربة الشيبانيين ويحظيان بالدعم العسكري من الحكام الصفويين، وفي شرق البلاد، في أنديجان وكاسان، نشطت تحركات المغول: سلطان سعيد وسعيد محمد ميرزا، عمّ المؤرخ ميرزا محمد حيدر، ومن الشمال كان يتوقع هجوم السلاطين الكازاخ.

ومع ذلك، كان مصدر الخطر الحقيقي من جنوب البلاد. وكما ذُكر آنفاً، فإنّ الشاه اسماعيل قد وعد، حينما كان في هراة شتاء ١٥١١ ـ ١٥١٢م، بمساعدة ميرزا خان، في حين أكد لرسول بابور أن «كل ما يحتله هو (بابور) في ما وراء النهر ستعود ملكيته إليه». وبعد الحصول على ضمانة الدعم، قرر ميرزا خان وبابور

الله خان (حاكم بخارى) وجانبيك سلطان (حاكم ميان قلعة)، ومحمد تيمور سلطان (حاكم سمرقند)، فقد عقدوا اجتماعاً وقرروا عقد اتفاقية سلام مع الكيزيلباشيين، مهما كانت الشروط، وذلك كي يتمكنوا من الاحتفاظ بما وراء النهر. وتجدر الاشارة إلى أنهم افلحوا في ذلك. ووقعوا اتفاقية سلام مع الصفويين بفضل وساطة خوجا كمال الدين سوغارج، الوزير السابق لدى شيباني خان، والذي كان يخدم حينها لدى الشاه إسماعيل. وبموجب هذه الاتفاقية انتقلت الأراضي كافة الواقعة على الضفة اليسرى لأموداريا وخراسان من ايدي الشيبانيين إلى الصفويين.

وهنا خضعت لسيادة الشاه اسماعيل مدينة بلخ، فأعطى المدينة والمناطق (المحافظات) التابعة لها ـ اندخود، شيبيرغان، تشيتيشكتو، فارياب، بالا ـ مرغاب، وغارتشيستان ـ إلى بايرام بك كارامانل، وعاد الشاه إلى «قم». وقبل ذلك، وإبان وجوده في هراة، كان قد وهب «حصار» وخوتالان وبادخشان إلى ميرزا خان (سلطان عويس ميرزا) ابن التيموري سلطان محمود ميرزا الذي ربط مصيره في ما بعد بالصفويين.

ما وراء النهر في عهد أوائل الشيبانيين

إنه لمن الصعب إعطاء صورة دقيقة عن التطورات اللاحقة التي طرأت على بلاد ما وراء النهر في ما بعد.

بناء على المعلومات الضئيلة والمتناقضة أحياناً، المستقاة من المصادر التاريخية. فإنه بعد اتفاقية السلام مع الكيزيلباشيين، عقد السلاطين الاوزبك اجتماعهم الدوري في سمرقند، وفق العادات والتقاليد القديمة للشعوب التركية المغولية، وانتخبوا اكبرهم سناً توتشكونتشي خان (١٥١٠ ـ ١٥٣٠م) خاناً لعموم الاوزبك. فسارع هذا الخان المنتخب إلى تقسيم البلاد بين اقربائه، فأبقى طشقند لسويونتش خوجا سلطان، ومنح بخارى لعبيد الله سلطان، وميانكال لجانبيك سلطان، أما محمد تيمور سلطان فحصل على مناطق كيش ونخشاب وخوزار ودربند وضفة

الخطوة كانت خطوة مؤقتة فرضتها عليه الظروف. وثمة معلومات تستحق الاهتمام، اوردها بهذا الصدد خوندمير، عن حياة بابور وأعماله، ولم ينتبه اليها دارسوها. وقد جاء فيها ان بابور سارع إلى تسريح الكيزيلباشيين وزعيميهم احمد صوفي أوغلي وشاهروخ بك افشار، وأعطاهما هدايا قيمة وثمينة. إلا أن الممثل الشخصي للشاه محمد خان ايشيك اغاسي، بعد عودته إلى إيران في إثر الأميرين الكيزيلباشيين الآنف ذكرهما، أخبر الشاه ان «صاحب الجلالة بابور ينوي شق عصا الطاعة وخيانته». «ونتيجة لذلك ـ يستطرد خوندمير ـ قرر الشاه ارسال جيش إلى ما وراء النهر بقيادة نجمي سافي وزين الدين بك، وغيرهما من الأمراء، وذلك لإعادة بابور إلى صوابه، وتصحيح وجهات نظره».

ومع ذلك لم يصمد بابور على عرش سمرقند، إذ قام الشيبانيّون، في خريف ١٥١٢م، بحشد قوات كبيرة في تركستان، وشنوا هجوماً عنيفاً عليه وعلى الكيزيلباشيين. ودارت معركة دموية طاحنة بين الأوزبك الرحل من جهة، وبابور وحلفائه الكيزيلباشيين من جهة أخرى، في غيجدوان في ٨ رمضان ٩١٨هـ (١٧ نوفمبر ١٥١٢م) في موقعة تشولي ـ ماليك، انتهت بانتصار القوات الشيبانية المتحدة، التي كان يقودها عبيد الله خان وجانبيك سلطان وبوباي سلطان. زد على ذلك، قيام السلاطين الشيبانيون باجتياح خراسان في ربيع ٩١٩ هـ (ابريل ١٥١٣م)، فاستولى عبيد الله خان وجانبيك سلطان على هراة، بينما زحف بوباي سلطان على بلخ. ولم يستطع خوجا كمال الدين محمود ـ زميل نجمي ساني ـ مقاومة هجمات الاوزبك الرحل، فاضطر إلى الفرار من المدينة واللجوء إلى بابور في كيش.

في تلك الاثناء، كان الشاه اسماعيل متمركزاً في مصيف (بايلاك) في بابا ـ حقي، إحدى ضواحي هراة، وبتصميم منه على عدم السماح لشيباني خان بمواصلة إحراز النجاحات والانتصارات، قرر الإسراع بإرسال قواته إلى اندخود وشيبيرغان وبلخ، بإمرة ديو سلطان وأمير سلطان.

ومع ذلك لم يستطع الصفويون الصمود في الجزء الشرقي من خراسان. في

استعادة ما وراء النهر من أيدي الشيبانيين وشنا الحرب عليهم. هنا ينبغي القول إن كليهما كان آنذاك يتمتع بقوات قوية بما فيه الكفاية. فمثلاً، احتل بابور منطقة كابول الغنية، أما ميرزا خان فاستطاع، علاوة على بادخشان، احتلال كوندوز، التي هرب حاكمها آنئذ، أوروس بك دورمان، من المنطقة فوراً بعد وفاة شيباني خان. وفوق ذلك كله، وبعد كارثة مرو عام ١٥١٠م، على ضفة امودا ريا، انفصل ٢٠٠٠٠ الف من الفرسان المغول عن السلاطين الشيبانيين وانضموا إلى ميرزا خان. باختصار، اتحد آنذاك بابور وميرزا خان في كوندوز في أواسط شوال ٩١٦هـ (يناير ١٥١١م)، أما حملتهما على «حصار» فبدأت في أواخر فصل الشتاء، كما هو معلوم، وانتهت بانتصارهما. وهُزم السلاطين الشيبانيون (حمزة سلطان ومهدي سلطان ومحمد تيمور وغيرهم) في «بولي سانغين» على أيدي قوات بابور وميرزا خان والكيزيلباشيين، التي كانت بقيادة أحمد بك صوفي اوغلي وشاهروخ افشار. أما حمزة سلطان ومهدي سلطان، فتم أسرهما وقتلا؛ وتمكن محمد تيمور سلطان من الفرار بصعوبة بالغة.

لقد كان لمعركة «بولي سانغين» دور حاسم في تقرير مصير دولة الشيبانيين. وقام السلاطين كافة، والخان نفسه، بتنظيف خزائن ما وراء النهر وسلبها، وعبروا أمودا ريا، مدركين عدم جدوى المقاومة. وعندئذ حذا حذوهم الاوزبك الرحل، وقاموا بسلب خزائن فرغانة.

وهكذا، في اواسط شهر رجب ٩١٧هـ (بداية اكتوبر ١٥١١م) عاد ظهير الدين محمد بابور، فاعتلى عرش سمرقند مرّة أخرى.

في هذه المرّة، لم يدم حكم بابور لما وراء النهر سوى ثمانية اشهر. وعن حكمه في ما وراء النهر، فإننا نعرف ما يلي: انه فور احتلاله لسمرقند قام اولاً - نقلاً عن ميرزا محمد حيدر وروزبهان - بإصدار أمرٍ بإلقاء خطبة يذكر فيها أسماء أئمة الشيعة الاثني عشر، واسم الشاه اسماعيل واسمه هو، ما أثار سخط رجال الدين السنيين والسكان المحليين. ولم يكن بمقدوره التصرّف على نحو آخر، إذ إنه استطاع اعتلاء عرش آبائه بفضل مساعدة الكيزيلباشيين ودعمهم. إن مثل هذه

وشك الانتصار، ولكن، وكما ذكر محمد بن والي بأسلوب مجازي، فان الرياء والنفاق والتعسف وازدواجية الوجه لدى السلاطين، قد خيبّت أمل سويونتشي خوجا خان، وأوقعته في مأزق حرج، إذ تخلوا عنه في اللحظة الحاسمة وتركوه وحيداً وعادوا إلى «مرغاب». فاضطر سويونتشي خوجا خان إلى رفع الحصار عن حدود هراة، والانسحاب منها.

في ربيع ١٥٢٦م، قام الجيش الشيباني بقيادة عبيد الله ـ خان باجتياح خراسان، مجدداً، واحتل مرو والعديد من مناطق هراة. ولئن عجزوا عن تثبيت أقدامهم فيها، إلا أنهم نجحوا في ذلك تماماً في المناطق الواقعة شرقي «مرغاب».

وفي العام نفسه ١٥٢٦م الموافق ٢١ رمضان ٩٣٢هـ ـ ٢ يوليو ١٥٢٦م استولى كيستين ـ كارا سلطان ـ الابن الثاني لجانبيك ـ على بلخ والمناطق التابعة لها، والتي ألحقت، منذ ذلك الوقت، بصورة ثابتة، بدولة الشيبانيين. وبعد أن جاء الاستراخانيون الذين حلّوا محلّ الشيبانيين منذ عام ١٦٠١م، وبعد اتحاد طخرستان وبادخشان وكلاب والمناطق الجبلية الواقعة في أواسط أفغانستان، نشأت مقاطعة مستقلة عرفت في التاريخ بـ «خانية بلخ»[١].

واستمرّ الشيبانيون في اثارة قلق الكيزيلباشيين في الأعوام اللاحقة أيضاً كما يقول محمود زين الدين واصفي (١٤٨٤ ـ ١٥٥١ أو ١٥٦٦م)، صاحب كتاب «بديع الوقائع»، متطرّقاً إلى حملة كيلدي محمد ـ حاكم طشقند الشيباني وابن سويونتشي خوجا خان وخليفته ـ على خراسان عام ٩٣٥هـ ـ ١٥٢٨ ـ ١٥٢٩م، واحتلاله مروى شاه جهان.

لم يستطع الكيزيلباشيون، المنهمكون في النزاعات الداخلية وحروبهم في ما وراء القوقاز وضد تركيا، مقاومة هجمات الاوزبك الرحل. زد على ذلك، في عام

١ـ لمزيد من التفاصيل انظر ـ ب. أ. احمدوف. خانية بلخ (ق ١٦م ـ النصف الاول من ق ـ ١٨م) طشقند، ١٩٨٢م.

شهر ربيع الثاني (مايو ١٥١٦م)، كانت هذه المنطقة الشاسعة خاضعة للميرزا التيموري محمد زمان ـ ابن بديع الزمان ميرزا ـ ولكن في خريف العام التالي (١٥١٧م) انتقلت بلخ والاراضي التابعة لها إلى يد بابور، الذي ولّى عليها احد رجاله المقرّبين منه المدعو ابراهيم تشابوكا. وفي العام نفسه جاء محمد زمان، الذي فقد قواته وجنوده، إلى بابور في كابول، فغفر له أخطاءه كلها، وبعد شهرين أعطاه بلخ. فحكمها حتى شهر ذي العقدة ٩٢٩هـ (سبتمبر ١٥٢٢م)، متملّقاً لبابور تارة، وللشاه اسماعيل تارة أخرى.

واعتباراً من ربيع ١٥١٣م، كما هو معلوم، بدأ الاوزبك الرحل يشددون هجماتهم وضغطهم على مناطق الضفة اليسرى لأموداريا، وكان يرافق ذلك انتشار الخراب في مناطق اندخود وشيبيرغان وهراة ومرو، ومشهد. وقد كانت هجمات الشيبانيين عنيفة، لدرجة أن الشاه اسماعيل وبابور القلقين على مصير ممتلكاتهما وأراضيهما، أخذا يحصّنان الحدود القريبة من مناطق أموداريا. فقد قام الشاه بإرسال إبنه توخماسن إلى خراسان، وأرسل معه أمير سلطان وغياث الدين محمد وجيشاً كبيراً، في حين أرسل الى فيروز كوخ كلاً من درميش خان وزينال خان، وذلك لتنظيم أمور حماية مناطق إيران الغربية. أما الشاه نفسه، فقد ذهب إلى همذان حيث اقام معسكراً. كذلك قام بابور، بتعزيز حماية باميان وكاخمير د وغوري ومناطق افغانستان الجبلية الأخرى.

وفي ربيع ١٥٢١م، اجتاح عبيد الله خان خراسان مرة أخرى، على رأس جيش قوامه ٣٠٠٠٠ مقاتل. وآنذاك طوق الاوزبك الرحّل هراة وعملوا سلباً ونهباً في مناطقها لمدة شهرين. وبعد سنة، (ربيع ١٥٢٣م)، قام الشيبانيون، للمرة الثانية، باقتحام حدود خراسان، وكان على رأسهم في هذه المرة أيضاً، سويونتشي خوجا خان نفسه ـ والي الشيبانيين في طشقند ـ صحبة عبيد الله خان وجانبيك ـ سلطان وغيرهما. فاحتلوا بلخ، ثم انطلقوا إلى هراة، فاستبدّ الذعر بطهمساب ميرزا وغيره من كبار الشخصيات الكيزيلباشية. كان الشيبانيون على

مضايقات الكيزيلباشيين، اضطر كثيرون إلى الفرار من خراسان. وكان من بينهم «واصفي» الذي كان عبيد الله يقيم عبقريته وموهبته تقييماً عالياً، ووهبه كتاباً مكتوباً بخط يده شخصياً بعنوان «شاطفي»، ومئة «عبيدي»، وحصاناً وثياباً. وفي عام ١٥١٤م عينه كبيراً لمدرسي المدرسة التي شيدها في «ساوران». ونقلاً عن «واصفي» كان عبيد الله قد بنى، ايضاً، مسجداً وقام بإصلاحات في المدينة. وكسياسي ورجل دولة، وضع عبيد الله حداً للحركات الانفصالية والتقسيم والتجزئة الاقطاعية. كما إنه استطاع إخضاع خراسان وخوارزم لبعض الوقت.

ثمة قصة طريفة لحسن بك رومل، صاحب كتاب «أحسن التواريخ»، تسلط الاضواء على سيرة حياة هذا الملك. إن النزاع المستمر بين افراد السلالة الحاكمة في عام ٩٤٤ هـ (١٥٣٧ ـ ١٥٣٨م)، أثار الاضطرابات التي شملت خوارزم: «أصبح كل مسؤول ـ يقول المؤرخ ـ يطمع في الملك، وامتدت أيدي التعسف والظلم إلى كل زاوية، كل متسول يريد أن يصبح وزيراً، وكل خسيس دنيء يبغي ان يكون مسؤولاً كبيراً. لقد تردّت الاوضاع في الولاية وتدهورت». وأدت هذه الاوضاع ـ كما يُرى من تتمة القصة التي يسردها لنا المؤرخ ـ إلى قيام أبناء سفيان خان (يوسف سلطان وعلي سلطان و إش سلطان وبهلوان سلطان واكيش سلطان) بقتل عمر غازي خان ملك خوارزم، والاستيلاء على السلطة العليا. أما سلطان غازي، ابن عمر غازي المقتول، فقد لجأ إلى طشقند طالباً العون من باراك خان. فقام الأخير ومعه عبيد الله خان وعبد اللطيف سلطان ـ حاكم منطقة سمرقند ـ بمهاجمة خوارزم. لجأ علي سلطان إلى خراسان، وفر الآخرون إلى أماكن مختلفة، وبسهولة بالغة احتل السلاطين الشيبانيون خوارزم وعاصمتها. أما علي سلطان فقد حشد جيشاً جديداً في خراسان، بمساعدة الكيزيلباشيين على ما يبدو، واعتدى على خوارزم، وفي الطريق اليها انضم اليه السلاطين الباقون. إلا أنهم لم يستطيعوا التغلب على الشيبانيين. وعلى ضفة أموداريا مني السلاطين بالهزيمة، فترك عبيد الله عبد العزيز سلطان في أوغينتش وعاد إلى بخارى، وأعاد اليها كلاً من نوروز أحمد خان وعبد اللطيف سلطان.

٩٤٢هـ (١٥٣٥م) فقد الصفويون، بصورة نهائية، هراة التي استولى عليها عبيد الله خان.

ولم يكن حليفهم ظهير الدين محمد بابور أحسن حالاً، إذ كان مشغولاً في محاربة القبائل الأفغانية المتمرّدة، وفي حملاته على الهند الشمالية.

وباختصار، في عام ١٥٢٦م، استطاع الشيبانيون فرض سيادتهم، إضافة إلى ما وراء النهر، على كامل مناطق الضفة الشمالية جنوب تركستان، من نهر «مرغاب» غرباً حتى مصب نهر كوكتشا شرقاً.

خانية بخارى

الاحداث السياسية الأساسية: توفي كوتشكونتشي خان في عام ٥٣٠هـ. وإبان فترة حكم ابنه وخلفه أبي سعيد القصيرة (٥٣٠ ـ ٥٣٤هـ) لم تحصل أحداث مهمة تذكر، سوى موقعته عام ١٥٥٤م في فاراب الأمودارية، تلك الموقعة التي دارت بينه وبين الشيباني عبد الله سلطان، الذي قدم من الضفة اليسرى لأمودريا.

في عام ١٥٣٤م، انتقل الحكم في الدولة الشيبانية إلى يد عبيد الله خان (١٥٣٤ ـ ١٥٤٠م)، الحفيد المشهور لشيباني خان. وفي عهده نقلت عاصمة الدولة الشيبانية من سمرقند إلى بخارى. ويعتبر عبد الله المؤسس الحقيقي والفعلي لخانية بخارى. وجاء في المصادر والمراجع التاريخية أنه كان محارباً شجاعاً منذ ايام شبابه: شارك، تقريباً، في كل الحروب التي قام بها شيباني خان، وبعد مصرع شيباني خان، وفي عهد كوتشكونتشي خان، لعب دوراً كبيراً في حماية الدولة الشيبانية وتعزيزها.

وإضافة إلى ذلك كله، كان عبيد الله خان رجلاً مثقفاً ويجيد، فضلاً عن اللغة التركية، اللغتين العربية والفارسية، ويكتب الأشعار الرائعة ويوقعها باسم مستعار «عبيدي». وترك بعد وفاته ديوان شعر رائع. وقال عنه زين الدين واصفي إنه كان ملكاً مثقفاً وحامياً للعلوم والأدب. وكما هو معلوم، بعد عام ١٥١٢م، ومن جراء

وبعد وفاة عبد اللطيف (١٥٥١م) حاكم سمرقند، اكتسح ما وراء النهر وبسط سلطته على قسم كبير منها.

يقول حفيظي تايتش بخاري، صاحب كتاب «شرف نامه شاهي»، إن السلاطين الشيبانيين لم يكونوا متحدين، وفر كثيرون منهم من دويلاتهم (مقاطعاتهم). فمثلاً، هرب رستم خان وابنه اوزبك سلطان باتجاه بخارى، وفر اسكندر خان مع ابنائه، ما عدا عبد الله خان، باتجاه بلخ. بينما توارى عبد الله خان وبكواته ومقاتلوه وراء اسوار كيرمين المنيعة. وعن ذلك اورد حسن بك رومل في كتابه «أحسن التواريخ» معلومات جديرة بالاهتمام، غير متوافرة، مثلاً، في «شرف نامة شاهي» لحفيظي تاينش بخاري، ولا في «مسخر البلاد» لمحمد يار بن عرب كاتاغان. واورد من ضمن ما اورده، ان باراك خان، ابن سويوتشاك ـ خان، بعد انتزاعه سمرقند من خلفاء أبي سعيد خان، ومحافظة بخارى، باستثناء بخارى نفسها، من برهان سلطان، حفيد عبيد الله خان، وميانكال من اخلاف جانبيك سلطان (المتوفى في نهاية شوال ٩٣٤هـ (١٧ يوليو ١٥٢٨م)، وشهر سابز وكارتشي من خلفاء بولاد سلطان، يبدو ان برهان سلطان، في ظروف جائرة، لم يستطع الاحتفاظ لنفسه إلا بمدينة بخارى، في حين انتقلت بقية اراضي خانية بخارى إلى باراك خان، الذي ألقيت الخطب باسمه في مساجد ما وراء النهر كافة لدى أداء صلاة الجمعة، وصكت باسمه النقود. لقد بذل نوروز احمد خان قصارى جهوده للاحتفاظ بعرش الخان الأعلى (الاكبر) لعموم الاوزبك. فمثلاً، تحالف في عام ١٥٥٣م مع برهان سلطان، وقرر القضاء على من بقي من المطالبين بالعرش ومن جملتهم وأبرزهم: عبد الله سلطان (المولود عام ١٥٣٣م) الشاب المفعم حيوية ونشاطاً.

وبموجب خطة مدروسة، قام باراك خان بمحاصرة كيش، بينما حاصر برهان سلطان «نسف» التي كانت خاضعة لعبد الله خان. إلا أن بير محمد خان هبّ من بلخ لنجدة المحاصرين وأنقذهم في حين دارت في تلك الاثناء، في ضواحي كاسان التابعة لـ «نسف»، معركة دامية طاحنة بين عبد الله خان وبرهان سلطان، هُزم فيها برهان سلطان وتراجع صوب بخارى. أما عبد الله خان وبير محمد خان فقد سارا

وللأسف لم يستطع خلفاء عبيد الله ـ خان: عبد العزيز (١٥١٠ ـ ١٥٥٠م) وبرهان سلطان (١٥٥٤ ـ ١٥٥٧م) إيقاف انقسام دولة الشيبانيين التي أخذت تتجزأ إلى (دويلات) «اولوسات» مستقلة. فولاة الأمس والاتباع، في سمرقند وميّان قلعة (في افارينكينت) ونسف و«حصار» وكيش، شقوا عصا الطاعة وتمرّدوا وأخذوا يتنافسون على السلطة. وكان اشدهم عناداً عبداللطيف ـ الابن الثالث من ابناء كوتشوم خان ـ الذي حاول اعتلاء عرش خان عموم الاوزبك (١٥٤٠ ـ ١٥٤١م)، وبير محمد خان، الذي كان في بلخ حينذاك.

بعد وفاة عبد العزيز خان (٢٦ ربيع الثاني ٩٥٧هـ ـ ١٦ مايو ١٥٥٠م) خلفه على العرش محمد يار سلطان ـ حفيد شيباني خان ـ وكان ضعيف الشخصية عديم الكفاءة. فجاء إلى بخارى معزياً، واستولى على العرش (٣ شعبان ٩٥٧هـ ـ ١٨ أغسطس ١٥٥٠م). إلا أنّ رجال الدين المسلمين، بل بشكل ادق، الشيوخ الجويباريين لم يعترفوا بالخان الجديد.

بعد ذلك حاول بير محمد خان أن يولّي على العرش أحد رجاله ـ عمر غازي سلطان ـ المشهور باسم أوزبك سلطان، وهو ابن الشيباني رستم سلطان. وعن الأمير تيمور قولي، عن بدر الدين كشميري (قيم الصيارفة ـ داروغاي صراف خانة) أنه قال: «إن كبار الأمراء تقدموا ذات يوم بطلب التماس إلى فضيلته (خوجا محمد إسلام) بشأن اوزبك ـ خان، ذاكرين بأن ياسا جنكيزخان قد أرسلهم. لكنه اجابهم قائلاً: «إن الدراويش لا يمتثلون لقوانين جنكيزخان، ولا يمتثلون إلا لإرادة الله». ولما أخبر الأمراء الإيشان (فضيلة الشيخ) أن بير محمد خان يؤيد أوزبك خان لأنه أكبر سناً من الآخرين ويمتاز بالحزم والشجاعة، أجابهم الخوجا محمد اسلام بلهجة جازمة: «إذا كان بير محمد خان يبجل أوزبك خان، فإن عبد الله خان يبجّل الله». باختصار، باءت خطة بير محمد خان بالفشل في هذه المرة، وفي اواسط عام ٩٥٨هـ (يونيو ـ يوليو ١٥٥١م) غادر بخارى، معيداً السلطة لمحمد يار سلطان.

استغل نوروز أحمد خان، حاكم طشقند، عدم الاستقرار في ما وراء النهر.

خان. وبعد حصار طويل، وقعت معاهدة سلام طهّر عبد الله خان، بموجبها، كاراكول ورجع، مجدداً، باتجاه ميمنة وتشيتشيكه.

في ربيع ١٥٥٦م سنحت فرصة مؤاتية لعبد الله خان ومؤيديه لاحتلال بخارى. ومساء ١٨ ذي القعدة ٩٦٣هـ (٢٤ سبتمبر ١٥٥٦م)، توفي نوروز أحمد خان في «ربضي خوجا» بزرافشان. فقام الأمير ميرزا اكابي كوشتشي بتدبير مؤامرة ضد برهان سلطان لاغتياله. وتمت المؤامرة ونفذت بنجاح في ٧ شعبان ٩٦٤هـ (٦ يونيو ١٥٥٧م).

استغل عبد الله خان هذه المناسبة واستولى على بخارى. وساعده في ذلك بير محمد خان وعدد من الأمراء المناوئين لبرهان سلطان. ونقلاً عن مؤلفي كتابي «شرف نامه شاهي» و«مسخر البلاد»: كان إنساناً قاسياً خبيثاً، يعدم المواطنين لأتفه الأسباب وقتل، علاوة على محمد يار سلطان العديد من الحكام والأمراء؛ حاشيته تتألف من أناس عديمي التقوى، يضطهد الناس وخوجات الجويبريين. في الجمعة الثانية من شهر شعبان ٩٦٤هـ (١٣ يونيو ١٥٥٧م) خطب في مسجد بخارى باسم بير محمد خان، الذي كان اكبر الشيبانيين سناً، وبقي الخان الاعلى لعموم الاوزبك حتى مطلع شهر شعبان ٩٦٨هـ (١٧ ـ ١٨ ابريل ١٥٦١م)، وعرف باسم بير محمد خان الاول. ورغم إلقاء الخطبة وصكّ النقود باسمه، فإن سلطته كانت اسمية بحتة. كانت الاوضاع في بلخ غير مستقرة (نشط التيموريون على حدود خانية بلخ، وبدأ دين محمد خان تمرده)، ودبت الفوضى الداخلية ولم يستطع بير محمد خان القدوم من بلخ إلى بخارى. لذا كان الحاكم الأعلى الفعلي، منذ عام ١٥٥٧م، هو عبد الله خان، الذي دخل التاريخ باسم عبد الله خان الثاني.

في العام ١٥٦١م دب خلاف بين مير محمد خان وعبد الله خان الثاني. وكان سبب ذلك، بناءً على ما ورد في كتابي «شرف نامه شاهي» و«مجمع الغرائب»، سعي مير محمد خان لأخذ بخارى من ابن أخيه بتبديلها ببلخ. في هذا الشأن، كان الطرفان قد وقّعا اتفاقية في ربيع ١٥٦١م، في شيبيرغان. بيد أن الصفقة لم تتم نتيجة رفض خوجا محمد اسلام لها، إضافة إلى رفض زعيمي الشيوخ الجوبيريين

بالجيش إلى كيش، ما اضطر باراك خان إلى رفع الحصار والانسحاب ميمماً باتجاه سمرقند. ولكن بعد سنة ١٥٥٤م اتيح لباراك خان انتزاع ميانكال ونسف وكيش من أخلاف جانبيك سلطان. وفي موقعة كارشي التي جرت في ١٠ ديسمبر ١٥٥٤م، قتل رستم سلطان، وهرب كل من عبد الله خان وأوزبك سلطان وخسرو سلطان ودوستم سلطان وعبد الله سلطان إلى بلخ حيث اعطاهم مير محمد خان اندخود وشيبيرغان. قرر بير محمد خان الثأر لأبناء إخوانه الذين هزموا في موقعة كارشي، وسار شخصياً لمحاربة نوروز احمد خان، ودارت بينهما معركة في مكان صغير يعرف بـ «فراخين» (ميانكال) في ٢١ جمادى الاولى ٩٦٢هـ (١٥ ابريل ١٥٥٥م)، الا أنه هزم فيها.

بعد ذلك،قرر نوروز احمد خان القضاء على برهان سلطان. وفي شهر رجب ٩٦٢هـ (مايو ـ يونيو ١٥٥٥م)، سار على رأس جيش إلى بلخ، فحاصرها مدة ثلاثة أشهر. وهنا أرسل برهان سلطان رسولاً إلى شيبيرغان مستنجداً بعبد الله خان وواعداً إياه مقابل ذلك بالتخلي له عن بخارى والذهاب إلى حيث يأمره. سارع عبد الله الى جمع قواته، وعبر أمودريا إلى ضفتها اليمنى عبر بورداليك، وأحرز انتصاراً قرب فاراب على القوات التي حشدها هناك نوروز باراك خان، وأسرع بمواصلة انطلاقه إلى بخارى، فاستقبله برهان سلطان في شهري اسلام الواقعة بين بخارى وكيرمين، وسلمه مفاتيح بوابة بخارى. وقام عبد الله خان بتعيين برهان سلطان حاكماً على كاراكول. ولكن بعد مرور ٤٠ يوماً، نقض عبد الله خان الاتفاقية وتحالف مع نوروز احمد خان وبواسطة الجيش المساعد او الاحتياطي، الذي وضعه بتصرفه، حاصر بخارى. لم تكن القوى متكافئة، لذا ترك عبد الله خان بخارى ولجأ مرة أخرى إلى بلخ. وعينه مير محمد خان حاكماً على ميمنة وتشتشيتكه، حيث مكث حتى ربيع ١٥٥٦م.

في أوائل ربيع ١٥٥٦م، أرسل عدد من الأمراء المتمردين على برهان سلطان، ومن ضمنهم: (جانكيلدي آتاليك كونغورات وخلكلي اتاليك وتيمور قولي وغيرهم)، دعوة إلى عبد الله خان، وسلّموه كاراكول. فثار عليه برهان سلطان ونوروز أحمد

(عبد المؤمن). وسبب ذلك، أنّ عبد الله خان، بعد احتلاله هرات، لم يمنحها له بل لـ «كولبابا كوكيلتاش». وهكذا تطورت هذه العلاقات الفاترة، وتحولت إلى عداء بين الأب وابنه، لدرجة أنهما أخذا يحشدان قواتهما في خريف ١٥٩٨م: قوات عبد المؤمن على الضفة اليسرى لأموداريا، وعبد الله خان في سمرقند وكارشي. وفي شهر يناير ١٥٩٨م، عبر عبد المؤمن بقواته إلى الضفة اليمنى، وسار مندفعاً صوب كارشي. وعاد عبد الله خان من كارشي إلى سمرقند، على جناح السرعة، وباشر بتحصين المدينة. إلا أن وفاة عبد الله في ٢ رجب ١٠٠٦هـ (٨ فبراير ١٥٩٨م) حالت دون إراقة الدماء.

لم يدم حكم عبد المؤمن سوى ستة اشهر، وقتل على يد أنصار أبيه. وبعد ثلاث سنوات من الحكم (١٥٩٨ ـ ١٦٠١م) مكث فيها بير محمد خان الثاني الشيباني على العرش، انتقلت السلطة الى الأستراخانيين، خلفاء الابن الثالث عشر لـ «جوتشي خان توغا تيمور، الذي حكم قبل ذلك حاجي طرخان (استراخان).

توفي جاني محمد خان، مؤسس الأسرة الاستراخانية، في ٦ جمادى الآخرة ١٠١٢هـ (١٢ نوفمبر ١٦٠٣م) وبعد سبعة أيام من الحداد، قام السلاطين وزعماء المسلمين، بتاريخ ١٢ جمادى الآخرة (١٨ نوفمبر ١٦٠٣م)، بإجلاس باقي محمد على اللباد الأبيض. وفي فترة حكم باقي محمد (١٦٠٣ ـ ١٦٠٦م) ووالي محمد (١٦٠٦ ـ ١٦١١م)، فقد الأستراخانيون تركستان، وسايرام، وسوزاك، وطشقند، وفرغانة، التي استولى عليها السلاطين القازاخيون بالتحالف مع خلفاء سويونتشي خوجا خان. واشتدت غارات القازاخيين والكاراكالباكيين، والقيرغيز والكالميك على مناطق ما وراء النهر الداخلية، كما اشتد التناحر والمنازعات الاقطاعية والفوضى في «حصار»، وتشاغانيان، وكوندوز، وبادخشان.

واستطاع إمام قولي خان، أكثر الأستراخانيين موهبة وحيوية ونشاطاً، إعادة الأمن والاستقرار، وتقوية جهاز الدولة المركزي وتوطيده. كما شن حروباً ناجحة على الرحل (الكالميك، القازاخ وغيرهم)، ومنع حدوث الانقسامات الاقطاعية المحلية.

والطريقة النقشبندية منذ ١٥٤٢م. ولما قدم بهذا النبأ احد مقربي عبد الله خان إلى جوبيار كولبابا كوليلتاش، أجابه حضرة الإيشان فوراً: «لقد خطر ببال خاننا أن يستبدل بخارى ببلخ دون استشارتنا، وإذا كان يعتقد إن بخارى خاضعة لسلطته بدون أي مساعدة او دعم، فليتصرف كما يشاء وليعطها لمن يريد، سنعيش وسنرى ماذا سينجم عن هذا التصرف المتهور».

وفور عودته إلى بخارى، سافر عبد الله خان الثاني إلى جوبيار، واعتذر لفضيلته. وبعد ذلك، استدعى والده اسكندر خان من كيرمين، وفي شهر شعبان ٩٦٨هـ (ابريل، مايو ١٥٦١م) أجلسه على العرش. أما اسم مير محمد، وبتعبير المؤرخ المعاصر: «فقد شطب من الخطبة». وعلى الرغم من ذلك، فقد ظلت مقاليد السلطة بيد عبد الله خان الثاني الذي توّج خاناً، بصورة رسمية، عام ١٥٨٣م، بعد وفاة اسكندر خان.

وباسم عبد الله خان يرتبط تأسيس الدولة الاقطاعية الكبيرة، التي ضمت ما وراء النهر، تركستان الجنوبية وبادخشان وخوتّالان (منذ ق ١٦م) وكُلاب وهراة والجزء الشرقي من داشتي كيبتشاك وخوارزم. بدأ النضال في سبيل توحيد البلاد فوراً بعد الاستيلاء على بخارى عام ١٥٥٧م. حيث استولى على تشارجو ذات الأهمية السياسية الاقتصادية والاستراتيجية والواقعة على الطريق المؤدية إلى أموداريا. وفي خريف ١٥٦٧م حاصر مرو. وفي عام ١٥٧٠م، أخضع لسلطته اندخود وشيبيرغان الواقعتين على الضفة اليسرى لأموداريا. وفي عام١٥٧٢ استولى على ترمذ. وفي عام ١٥٧٣، بعد حصار طويل دام تسعة أشهر، واشتباكات وحروب عنيفة ضارية، اخضع بلخ عاصمة تركستان الجنوبية. وبين ١٥٦٧ ـ ١٥٨٣م، وبعد حرب استنزاف دموية، وضع عبد الله خان الثاني حدّاً للنزعة الانفصالية لدى خانات الشيبانيين والسلاطين، ووحّد ما وراء النهر وفرغانة وتركستان. وفي ١٥٨٤ ـ ١٥٨٩م، بسط سيادته على بادخشان وخوتّالان، وفي عام ١٥٨٧م، طردت القوات الشيبانية الكيزيلباشيين، واستولت على هراة.

بعد عام ١٥٨٧م، فترت العلاقات إلى حد ما بين الأب (عبد الله خان) والابن

إلى ذلك، فقد دبت المجاعة، الأمر الذي استغله عبد العزيز خان، فأرسل جيشاً كبيراً (تشير المصادر إلى أن قوامه كان زهاء ٢٠٠٠٠٠ مقاتل، وهذا غير صحيح بتاتاً) عبر إلى ضفة أموداريا الجنوبية، وعسكر في منطقة «باتكاك كولي اختشي». وأمام هذا الواقع، رأى شاه جهان أنه من الحكمة سحب جيشه من خانية بلخ، قبل حلول برد الشتاء (١٦٤٨م)، وإعادة السلطة إلى نادر محمد خان.

دامت فترة حكم نادر محمد خان الأخيرة في بلخ ما يقارب السنتين. وفي ربيع ١٦٥١م، حاربه سبحانقولي سلطان وأبوه، الذي تنازل عن السلطة لابنه، واضطر إلى اللجوء إلى مكة.

كانت فترة حكم سبحانقولي خان لخانية بلخ (١٦٥١ ـ ١٦٨١م) قد مضت في نزاع دائم مع الخان الاعلى ـ عبد العزيز خان، ومن أبنائه: اسكندر سلطان، عباد الله خان... ألخ.

كانت أيام حكم عبد العزيز خان (١٦٤٥ ـ ١٦٨١م)، أياماً شاقة صعبة. وكما اشرنا آنفاً، اضطر لمحاربة سبحا نقولي ـ خان. وقد أثّرت تأثيراً جسيماً، وألحقت أبلغ الاضرار، حروبُ النهب والسلب المتكررة بانتظام، والتي كان يشنها الخيويون على خانية بخارى. ففي عام ١٦٥٥م، شن هؤلاء الخيويون بقيادة أبي الغازي خان نفسه (١٦٤٤ ـ ١٦٦٧م)، مرتين الغارات على واحة بخارى وكراكول، بصورة مدمرة، وعادوا بكميات كبيرة جداً من الغنائم، وبأعداد كبيرة من الأسرى. استمرت غارات الخيويين في السنوات اللاحقة أيضاً، وامتدت عمليات نهبهم وسلبهم، آنذاك، حتى كيرمين. وفي عام ١٦٥٨م نهبوا مدينة وردانزي. وفي عام ١٦٦٢م، بلغوا بخارى ونهبوا القرى القريبة منها. وقد اقتحموا، غير مرة، حدود خانية بخارى، في عهد انوشا خان بالذات (١٦٦٤ ـ ١٦٨٧م)، حتى إنهم تمكنوا في عام ١٦٨٠م، من احتلال سمرقند. أعرب الوجهاء والأغنياء (الذين ظلوا وجهاء واغنياء في انظمة الحكم كافة) عن رفضهم لذكر اسم انوشا خان في الخطبة، ولصك النقود باسمه. كذلك فإنّ عدداً من الأمراء المعارضين لسبحانقولي، حرضوا شعوبهم ضده: ونقلاً عن محمد يوسف منشي، أنّ أبا الغازي خان وانوشا خان شنّا على حدود خانية

وفي عام ١٦٤٢م، فقد إمام قولي خان بصره. وفي دولة الاستراخانيين ـ نقلاً عن مؤلف كتاب «تاريخ مقيم خاني»: «ظهرت الاضطرابات والفوضى». ولإنقاذ الاسرة الحاكمة استدعى إمام قولي أخاه، نادر محمد خان، من بلخ وتنازل له عن السلطة العليا. وبعد إن حكم ٤ سنوات دبر الأمراء المستاؤون منه مؤامرة ضده، وأطاحوا به عام ١٦٤٥م. وكان استياؤهم ـ كما ورد في كتاب «تاريخ كيبتشاك خاني» ـ ناجماً عن موالاة نادر محمد خان لأمير بلخ، واستخفافه وعدم تقييمه لخدمات امراء بخارى. ويقول محمد يوسف، صاحب كتاب «تاريخ مقيم خاني»، إن نادر خان كان يضطهد الأمراء والأغنياء الذين «اعتادوا على الحرية والرفاهية».

أُجلس على العرش عبد العزيز خان، الذي أعدَّه المتآمرون منذ زمن طويل قبل التمرد في خوجند، بحجة ضرورة محاربة السلاطين الكازاخ، الذين كانوا قد احتلوا قبل ذلك مناطق سرداريا.

علم نادر محمد خان بالمؤامرة، إبان وجوده في كارشي، فهرب فوراً إلى بلخ حيث باشر بتحصين العاصمة (بلخ) والمناطق التابعة لسلطته. إلا أن أبناءه وأحفاده: خسرو ـ سلطان، وبهرام سلطان، وسبحانقولي سلطان، وكوتلوغ سلطان، وقاسم سلطان، وغيرهم، شقوا عصا الطاعة. ففر قاسم سلطان، وسبحانقولي، إلى بخارى واتحدا مع عبد العزيز خان. ونتيجةً لتمرّد الأبناء والأحفاد، والأخطار المحدقة بخانية بلخ من قِبَل عبد العزيز خان، الذي كان قد عبر أمودايا وبلغ ساريبول، استنجد نادر محمد خان بالبابري، شاه جهان (١٦٢٨ ـ ١٦٥٧م)، الذي سرَّ للمناسبة المتاحة له، وسيَّر إلى بلخ جيشاً كبيراً بقيادة مراد باهشا و علي مروان خان. كان هدف البابري في غاية الوضوح: لقد كان يخطط للقضاء على حكم الاستراخانيين، وبسط سلطته على بلخ والضفة اليسرى لأمودايا بأسرها. ولأن نادر محمد كان مدركاً للنوايا الحقيقية لشاه جهان، فر إلى ميمنة اولاً، ومنها لجأ إلى أصفهان، وفيها الشاه عباس الثاني (١٦٤٢ ـ ١٦٦٦م).

ساد رجال شاه جهان في بلخ أكثر من سنتين (١٦٤٦ ـ ١٦٤٨م)، بيد أنهم لم يتمكنوا من ترسيخ أقدامهم فيها. والمهم هنا أنهم لم يلقوا دعماً من الشعب. وإضافة

وذلك من جراء نمو الملكية الاقطاعية الكبيرة، وإفقار صغار الفلاحين. وأدى ذلك، بدوره، إلى تعزيز الحركة الانفصالية، وإضعاف جهاز الدولة المركزي. زد على ذلك، تمرد قبيلة «يوز» في سمرقند، والكينيغيس والمانغيت في شهرسابز، واشتباك النيمانيين والسرايين في سمرقند، واستمرار غارات القبائل الرحل من الشمال، بالاضافة إلى، ازدياد اضطهاد الشعب على ايدي المقربين من الخان، ولاسيما بالتوي سراي ومختار شفيع من قبيلة جوغي وغيرهما. ونقلاً عن مير محمد أمين بخاري، مؤلف كتاب «عبيد الله نامه»: بدأوا باضطهاد طبقات الشعب كافة تقريباً، مستغلين دعم عبيد الله خان نفسه (١٧٠٢ ـ ١٧١١م). فمثلاً استولوا على «التانخاخ» (الاراضي الممنوحة لصغار العسكريين والموظفين، أو ايراداتها) العائدة للعسكريين، وكانوا يشجعون المرابين الهندوس بمختلف السبل، ويفرضون الإتاوات والضرائب الجديدة كما يحلو لهم، كما اصدروا وحدة نقد ذات عيار منخفض (في عام ١٧٠٧م)، فأدى ذلك، ليس إلى إلحاق الاضرار بمصالح طبقة التجار فحسب، بل أضرَّ بالفلاحين وبأصحاب الحرف اليدوية ايضاً، حتى إنهم تطاولوا واعتدوا على الأراضي العائدة لرجال الدين المسلمين بالوراثة، فارضين عليها «بيراتات» (اوراق دفع خاصة)، وإتاوات وضرائب وخراج . باختصار، كان عبيد الله خان ألعوبة بأيدي حفنة من الإقطاعيين. كما ازداد الوضع الاجتماعي والاقتصادي انحطاطاً وتدهوراً، نتيجة اندلاع الحرب بين بخارى وبلخ منذ عام ١٧٠٢م. وخلال سبع سنوات (١٧٠٢ ـ ١٧٠٩م) قاد عبيد الله الجيش خمس مرات إلى بلخ، الأمر الذي ألحق خسائر فادحة، لا تحصى ولا تقدر، بكلا الجانبين.

قتل عبيد الله خان في «تشاباغي فتح أباد» بـ «بولي ميرزا » في ليلة ١٦ / ١٧ مارس ١٧١١م، في مؤامرة دبرها له الأمراء والقادة العسكريون. خلفه على العرش أخوه أبو الفايز سلطان (١٧١١ ـ ١٧٤٧م) وكان شخصاً عديم الكفاءة ضعيف الشخصية. إلا أنه لم يستغل السلطة، إذ إن مقاليد الحكم بأسرها كانت في يد جاوشان كالماك، في بادئ الأمر، وبعد مقتله انتقلت إلى يد الكوشبيغ الاعلى عبد الله بي، وفي السنوات الأخيرة من حكمه ، صارت بيد محمد حكيم بي مانغيت.

بخارى زهاء ١٨ غارة. لقد تركت هذه الغارات المتكررة المنتظمة أسوأ الأثر في الاوضاع السياسية والاقتصادية في خانية بخارى، وادت إلى ازدياد توتر الاوضاع الداخلية المتوترة أصلاً.

وجلبوا معهم ـ بعبارة مؤرخ ذاك العصر ـ «النهب والدمار لمناطق ما وراء النهر، وتشريد سكانها وتشتيتهم».

اضطر عبد العزيز، نتيجةً لكبر سنه وعجزه عن إدارة شؤون البلاد، وتحت ضغط الأمراء والوجهاء، إلى التنازل عن العرش لسبحانقولي خان (١٦٨١ ـ ١٧٠٢م)، الذي توجب عليه محاربة الخيويين من جهة، والحكام الانفصاليين من جهة أخرى، ومن جملتهم حكام بلخ ـ اسكندر سلطان وصدّيق محمد. صحيح انه بفضل مساعدة محمود بي كاتاغان الفعالة، استطاع تحرير سمرقند ونواح أخرى من قوات انوشا خان، إلا أنه لم يتمكن من إقامة الاستقرار والنظام في بلخ والمناطق الخاضعة لسلطته. وفي مطلع شهر مايو ١٦٨٣م، قام الأمراء وزعماء القبائل الرحل المتمردون بالاطاحة باسكندر سلطان، ولي عهد بلخ وخانها، ثم قتلوا اخاه عبد الله سلطان. وهنا قام صدّيق محمد بالاستيلاء على زمام الحكم. وفي عام ١٦٨٧م عزله سبحانقولي خان عن الحكم وعهد بإدارة بلخ إلى محمد خان ـ آتاليك، زعيم قبيلة «يوز»، ولم تمر عدة ايام حتى نُحّي عن منصبه، وعُيّن مكانه جاويم بي آتاليك. وفي عام ١٦٨٨م، في مطلع شهر اغسطس، انعم سبحانقولي خان ببلخ على محمد بي آتاليك العظيم. وفي اغسطس ١٦٩٧م، تم عزله ايضاً، وعين مكانه محمد مقيم سلطان (حتى عام ١٧٠٧م). وهكذا استمرت الحروب ضد غزو الخيويين حتى عام ١٦٨٦م، وضد حكام الأولوس الانفصاليين، طيلة فترة حكم سبحانقولي خان.

ويكمن الانتصار الوحيد في تحرير بالا ـ مرغاب من ايدي ايران الصفوية في عام ١٦٨٩م وإعادة ضمها إلى خانية بلخ.

كان النصف الاول من ق ١٨م مرحلة انحطاط وتدهور اقتصادي وسياسي،

كارشي. وانضم إليه حاكم خوزار باباخان بقواته المؤلفة من ٣٠٠٠ مقاتل. وبمساعدة هذه القوات، قام رضا قولي بمحاصرة كارشي. ولكن ـ نقلاً عن محمد كاظم ـ تمكن محمد حكيم بي، وأبو الفايز خان، الذي هب لنجدته بستين الف مقاتل، من الدفاع عن كارشي. ورغم ذلك، في المعركة الاساسية الفاصلة التي جرت قرب كارشي في ٢٤ نوفمبر، هزمت قوات الاستراخانيين، ولجأ محمد حكيم بي وأبو الفايزخان، وما تبقى لديهما من جند، إلى قلعة كارشي.

وعلى الرغم من الانتصار الذي حققه رضا قولي، فإنه لم يحاصر كارشي وقصد بلخ. ما أسباب هذا الانسحاب السريع؟ يعلل مؤلف كتاب «تحفة الخاني»: ذلك بأنه ، في الوقت نفسه، وصل ايلبارس خان قادماً من خوارزم، لنجدة أبي الفايز خان. وذلك ايضاً ما يقوله المؤرخ نادر ـ شاه محمد كاظم، ونقلاً عنه جاء إيلبارس لنجدة الاستراخاني بـ٦٠٠٠٠ مقاتل من الأوزبك، والأراليين، والكاراكالباك، والكازاخيين. لكن، مؤلف كتاب «تاريخ نادري» يقول في مكان آخر إن رضا قولي خان، تصرّف بناء على أمر نادر شاه، الذي تلقّاه من قندهار.

هنا قرر نادر شاه إنجاز المهمة بنفسه. ووصل إلى بلخ في مطلع عام ١٧٤٠م، وفي بداية سبتمبر من العام نفسه عَبَر أموداريا. ولكن مما يؤسف له أن أبا الفايز، الجبان عديم الكفاءة، أرسل محمد حكيم بي آتاليك إلى نادر شاه، يعرض السلام. وبموجب الاتفاقية المعقودة بين نادرشاه وأبي الفايز في «تشاربكر»، فرضت على بخارى جزية ٢٠٠٠٠٠ صاع من القمح والشعير، إضافة إلى أنواع الماشية. وعلاوة على ذلك تعهد ابو الفايز بتخصيص ١٠٠٠٠ من الفرسان لجيش نادرشاه. فضلاً عن ضمّ سمرقند، ونسف، وكيش، و«حصار»، إلى مملكة نادرشاه.

عيّن نادر شاه محمد حكيم بي في بخارى، وارسل شقيقه دانيال بي إلى كيرمين، ثم قاد جيشه إلى خوارزم مصطحباً معه محمد رحيم بي، ابن محمد حكيم بي.

قتل أبو الفايز خان في ٩ يوليو ١٧٤٧م، بناءً على أمر من القائد العسكري

في عهد أبي الفايز خان، بلغت الأزمة الاجتماعية السياسية في خانية بخارى، ذروتها. ومن أهم الأحداث السياسية في عهده نذكر ما يلي:

كما هو معلوم، في الاعوام الأخيرة من حكم عبيد الله خان، انفصلت عن خانية بخارى فرغانة دولة جديدة عرفت في التاريخ بخانية خوقند. وكان مؤسسها شاهروخ بي من قبيلة مينغ. لم يستطع أبو الفايزخان أن يحول دون نشوء هذه الدولة الجديدة، التي ما لبثت أن أصبحت دولة قوية ذات نفوذ وهيبة.

ورغبة في إضعاف نفوذ محمد حكيم بي آتاليك، واغتصاب السلطة منه، تآمر ابراهيم بي كينغيس ـ حاكم شهر يسابز ـ مع شيرغازي ـ خان خيوة ـ. وفي عام ١٧٢٢م عيّن شخصاً يدعى رجب خان، خاناً أعلى وأجلسه على العرش. وادى ذلك إلى انفصال محافظات سمرقند ونسف وشهر يسابز، عن خانية بخارى. وسرعان ماقام رجب خان هذا، بمساعدة امراء أبي الفايز الذين انضموا إليه، لاحتلال بخارى، وفي طريقه إليها اصطدم بقوات آتاليك محمد حكيم بي، فهزمها وهرب آتاليك ولجأ إلى اسوار بخارى المنيعة ليحتمي بها. حاصر رجب خان بخارى، إلا أنه لم يستطع احتلالها، فطلب المساعدة من الكازاخيين الفارين من اضطهاد الكاليك، والمستقرين على ضفة سرداريا. فقام الكازاخيون، الذين كانوا يعانون من الظروف الاقتصادية السيئة، بالمجيء بأسرِهم وماشيتهم، واقتحموا ما وراء النهر واحتلوا ميانكال. وقام هؤلاء الرحل بسلب ونهب تومانات بخارى وسمرقند، خلال ٧ سنوات (حتى عام ١٧٢٨م)، وأتلفت ماشيتهم البساتين والحقول، ولم يجد رجب خان و أبو الفايزخان سبيلاً للتخلص منهم في ما بعد.

استغل الحاكم الايراني العظيم، نادر شاه افشار (١٧٣٦ ـ ١٧٤٧م) تدهور الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في خانية بخارى، وقرر احتلال الضفة العائدة لسلطة الاستراخانيين. فأرسل لهذا الهدف ابنه رضا قولي، الذي احتل، بدون إراقة كثيرٍ من الدماء، اندخود وشيبيرغان. وفي عام ١٧٣٧م استولى على بلخ. وفي السنة نفسها، وبناءً على أمر والده، عبر رضا قولي أمودريا قاصداً

(الفقهاء)، بتصرف ديوان الدولة، إذ كان لا بد من استغلالها. ولكن وردت نقطة تنص على أنه في حال ظهور صاحبها أو الوارث لها، خلال مدة ١٠ سنوات، فإن هذه الأملاك (الأراضي، المحلات التجارية، المطاحن الخ) تعاد لأصحابها مع قسم من الإيرادات التي درتها. ولإنعاش الزراعة اتخذت تدابير أخرى: ففي عام ١٥٠٢م أنشئت في زرافشان محطة لتوزيع المياه، وجرى تنظيم ممتلكات الاوقاف، وفي عام ١٥٠٧م أجري إصلاح نظام العملة.

كان الفلاحون يكوّنون الغالبية العظمى من سكان الخانية. وكانوا يزرعون القمح والشعير والذرة والأرز والجوغارا والماش والحمص والبازيلا والفاصوليا والقطن والفصفصة (او القرط) والعنب والخضار (البطيخ الاحمر والأصفر، الخيار والجزر واللفت والقرع)، وكانت البستنة وتربية الماشية متطورتين.

إبان حكم الشيبانيين والاستراخانيين، سادت الأنواع التالية من ملكية الاراضي الاقطاعية: ملكية الدولة (مملكة او ملكي سلطاني)، الملكية الخاصة (مُلك) الاوقاف والمشاعية. لقد كان قسم من الاراضي، ولاسيما العائدة ملكيتها لعائلة الخان وبعض رجال الدين الاقطاعيين من الضرائب والخراج، يسمى بـ«ملك حرخالص». هنا، ينبغي القول، إذا كانت أراضي الدولة (الاراضي الحكومية) تحتل مكانة خاصة في القرن السادس عشر، فخلال ق ـ ١٧م والنصف الاول من ق ـ ١٨م، تعززت الملكية الخاصة نتيجةً لبيع الاراضي الحكومية (الأميرية)، ما دعم استقلال الفلاحين وتعلقهم بأراضيهم. وكان جزء من الأراضي الحكومية قد وُهِب لأفراد اسرة الخان (السلاطين) والقادة العسكريين البارزين والوجهاء، وذلك لقاء بعض الخدمات الجليلة التي قدموها للعرش. وكانت ملكية الأرض هذه تُعرف بـ «سويور غالوم». وإبان حكم الشيبانيين، ولا سيما إبان حكم الاستراخانيين، عرفت ملكية للأرض باسم «تانخاخ»، وكانت تمنح للعسكريين، وصغار موظفي الدولة.

فرض على السكان دفع الخراج (كان يعرف ايضاً بـ «المال» أو «مال جهات»)،

الايراني بيخبود خان ومحمد رحيم بي، الذي أسس فيما بعد أسرة جديدة، هي اسرة المانغيت. وفي اليوم التالي (١٠ يوليو ١٧٤٧م) أجلس على العرش ابن ابي الفايز عبد المؤمن سلطان (١٢ سنة)، الذي لم يكن يتمتع بأي سلطة، إذ كانت مقاليدها جميعاً في قبضة محمد رحيم خان.

في عام ١٧٤٨م، خُلع عبد المؤمن خان، وأُجلس مكانه على العرش ابن ابي الفايز عبيد الله سلطان (٩سنوات). إلا أنه، شأنه شأن سلفه، لم يكن يتمتع بأي سلطة ولا يلعب أي دور في إدارة شؤون البلاد. وفي ٢٦ ربيع الاول ١١٧٠هـ (١٩ ديسمبر ١٧٥٦م)، وكما جاء في كتاب «بحر الاسرار» و«تحفة الخاني»، أجلس على عرش خانية بخارى محمد رحيم المانغيتي وخلع عليه لقب (الأمير الكبير).

حكمت الأسرة الجديدة حتى شهر سبتمبر ١٩٢٠م، تاريخ الاطاحة بهذه الدولة الاوزبكية على أيدي الروس البلاشفة بقيادة م. ف. فرونزه.

العلاقات الاجتماعية الاقتصادية ونظام الحكم في خانية بخارى

إبان حكم شيباني خان، جرت اعادة توزيع الاراضي، وإنعاش طبقة الاقطاعيين: صودرت الاراضي وجميع الممتلكات التابعة لأولئك الوجهاء - وجهاء العهد التيموري - وكبار رجال الدين المخلصين للتيموريين، واعطيت للرحل والأمراء ورجال الدين والاقطاعيين المحليين والرُّحل، فسارعوا بالانضمام إلى شيباني خان، يعرضون خدماتهم فور ظهوره عند اسوار بخارى وسمرقند. كانت الأراضي الشيبانية وأراضي الطبقة الاقطاعية الملتفة حول السلطة الجديدة، ملكاً للفارّين من البلاد، إضافة إلى الاراضي الخالية المقفرة التي استصلحت بواسطة الري، وتلك التي تم الحصول عليها بمختلف انواع المكائد والاحتيال. وهنا شغل الرحل افضل الأراضي وأخصبها. إن هذه العملية، إضافة إلى الأعمال العسكرية، تركت اسوأ الآثار على الناس البسطاء. ولكن بعد تعزيز السلطة السياسية في البلاد، بادر شيباني خان إلى إصلاح الأوضاع الاقتصادية، ووضع تلك الأراضي التي تركها أصحابها، وتلك التي لم يظهر ورثة يطالبون بها، بناءً على قرار من المشرعين

ينتجون. واضافة إلى ذلك كان الحرفيون المهرة يستغلون، بدون شفقة او رأفة، الحرفيين العاديين البسطاء المتدربين لديهم. وتجدر الاشارة هنا، إلى ان الغالبية العظمى من الحرفيين لم تكن لديهم ورشاتهم الخاصة ولا المواد الخام، ويشتغلون لدى الحرفيين الاغنياء في ظروف من الإجحاف والعبودية.

إن تطور الحِرَف، أدى بدوره ايضاً إلى تطور التجارة، محلياً وعلى المستوى الخارجي. وعرفت المدن الكبيرة، أسواقاً كثيرة: اسواق الحدادين، والنساجين، واللباد، والخيول ... الخ.

كانت خانية بخارى، ترتبط بعلاقات تجارية نشطة، مع الهند والصين وايران وتركستان الشرقية وروسيا، وغيرها من البلدان. وكانت مدن خانية بخارى، تصدر الاقمشة المختلفة (ميتكال وزانداناتشا والاتشا وكندياكي والخ من الاقمشة)، والمنسوجات الحريرية وشبه الحريرية، والورق والسجاجيد والمصنوعات المعدنية، المخمل، والخيول، الفواكه المجففة والخ؛ وتستورد من البلدان الأخرى المعاطف المصنوعة من فراء السمور والسنجاب، والسهام والرماح المصنوعة من الحور الابيض (تيري خادان)، والجوخ، والشاش والأقمشة المقصبة والاصباغ، والأفاويه، والاواني الصينية، والأدوية. واللؤلؤ، الشاي والأقمشة الحريرية الزاهية الخ..

ونقلاً عن المؤرخين، فقد أسهم كبار الحكام والمسؤولين والقيادة العليا للبلاد إسهاماً فعالاً في تنشيط التجارة الدولية وتطويرها، إذ وفروا الأمن للقوافل التجارية، وأحاطوا التجار بالعناية والرعاية، ونظّموا جباية الضرائب.

وعن نظام الحكم في خانية بخارى، يمكننا القول: انه كان على رأس الدولة خان ذو سلطات مطلقة غير محدودة. وكانت تعتبر ملكه الخاص، ويشرف على ادارة شؤونها، بمساعدة المؤسسات الحكومية المقربة اليه، وتعرف، عادة، بالدواوين.

ومن المعلوم، أنه إبان حكم الشيبانيين والاستراخانيين، كان نظام الاقطاع سائداً في البلاد، فقسمت البلاد إلى أقاليم «اولوسات» يحكمها سلاطين، وفي أحوال نادرة يحكمها أمراء كبار يحظون بثقة خاصة لدى الملك او الخان. وكان هؤلاء

والاخراجات (ضرائب مخصصة لمصروفات القصر، تكاليف)، و(ياساك ـ ضرائب لإعاشة الجنود)، و («عوارضات» وهي ضرائب استثنائية على الحوادث والنكبات)، (ضرائب الـ «ميرابان» لإعاشة مراقبي مصادر المياه)، («مشريفان»: ضرائب تجمع لدفع رواتب بعض مسؤولي الدولة)، («كوتفالي» ضرائب تجمع لقوميندان الحصن) وهَلُمَّ جرّاً. كذلك كان على السكان المساهمة في بناء الطرق والجسور والحصون ومصادر المياه. إن مثل هذه المساهمات الاجبارية معروفة في المصادر والمراجع باسم «مرديكار». في أثناء الحرب، كان الخانات والسلاطين يجمعون من السكان العلف والمؤونة بالقوة. وكانت هذه الجباية تعرف بالـ«اشليغ». كذلك كان السكان يساهمون في الـ «كوتالغا»، والـ «ايانداً» والـ «رافانداً»، أي في تأمين المبيت والطعام ورعاية الخيول التابعة لرُسُل الخان وسُعاته.

كذلك اشتهرت مدن خانية بخارى وقراها، إبان حكم الشيبانيين والاستراخانيين، بالصناعات اليدوية والتجارة. وجاء في «وثائق القضاة» والمراجع معلومات تفيد أنه كان في خانية بخارى زهاء ٧٠ فرعاً من الحرف اليدوية. ومن اشهرها، صناعة النسيج والخزف اليدوية. وصب حديد الزهر والصياغة وصناعة الاسلحة والورق والنقش على الخشب والحجر والجص، وصناعة الصابون ومخض الألبان... الخ. كذلك امتاز الورق، والاقمشة الحريرية وشبه الحريرية، والمنتجات المصنوعة منها، بالجودة العالية والشهرة، في الاسواق الداخلية والخارجية ايضاً. وكان حرفيو بخارى وسمرقند وكيش وطشقند ومرجيلان واديجان، ينتجون المصنوعات الرائعة من الحديد وحديد الزهر والذهب والفضة والبرونز والنحاس، كالأسلحة (السيوف والخناجر والدروع والتروس والخوذ)، والمصنوعات الزخرفية من الخزف المصقول والورق الممتاز المتعدد الانواع مثل: «مير ابراهيمي» و«سلطاني»، وغيرهما من الأنواع ذات الشهرة العالمية.

كان الحرفيون، شأنهم شأن الفلاحين، عرضة لأسوأ أنواع الاستغلال، ويدفعون ضرائب مختلفة («بارج»، «زكاة»، «سوسان» والخ)، ويرغمون هؤلاء لبيع سلعهم بأسعار زهيدة للتجار الاغنياء وكبار المسؤولين، وإهدائهم لهم افضل ما

شيغاول (رئيس التشريفات في القصر)، ميرزا ـ باشي (كبير الكتبة)، خزيناتشي (أمين الصندوق)، كوشبيغي (صقّار)، يورتشي (المسؤول عن إقامة خيام الخان او الملك ومعسكره).

وفي مناطق الادارة، أنشئت «اولوس بيغي» من قِبل الولاة والـ «اربابين» والـ «كالانتار».

الحركات الشعبية: أثقلت الحروب، والنزاعات الاقطاعية، والضرائب الباهظة، والفوضى التي يثيرها الحكام الاقطاعيون وجباة الضرائب، كاهل الشعب وأدت الى تدهور الاوضاع في البلاد، وبالتالي إلى استياء الجماهير وسخطها. للأسف لم تحتفظ المراجع بمعلومات وافرة عن ثورة الجماهير الكادحة، احتجاجاً على سياسة الاستغلال الفاحش ودفاعاً عن حقوقهم وكرامتهم. ومن المعلومات الطفيفة الضئيلة الخاطفة التي وردت في المراجع، نذكر على سبيل المثال، انتفاضة سكان كاراكول في بداية ق ١٦م وانتفاضة بلخ عام ١٦٠٥م، ضد استبداد حاكم المنطقة شاهبيك كوكيلتاش، والانتفاضة الشاملة في وادي زرافشان عام ١٦٨١م، واضطرابات بخارى عام ١٧٠٨م، وتمرد السمرقنديين عام ١٧١٢م، وحركات عصيان عشرينات وأربعينات ق ١٨م، في كل من كيرمين وميانكال وشهرسابز، وغيرها من مدن الخانية، ضد ظلم الحكام المحليين واستبدادهم.

العلوم والثقافة: تطورت العلوم والثقافة والفنون في خانية بخارى رغم كثرة الحروب والنزاعات والخلافات بين الاقطاعيين، ورغم الخصومات والعداوات بين افراد الاسرة الحاكمة في الفترة من ق ١٦ م والنصف الاول من ق ١٨م.

لدى التطرق إلى العلوم، لا ينبغي مقارنة وضعها بما كانت عليه ابان حكم السامانيين وملوك خوارزم، وتيمور والتيموريين. ونظراً للازدياد القوي المتعاظم لنفوذ رجال الدين، المسلمين و النقشبنديين، في الميدان السياسي في هذه المرحلة من التاريخ، تطورت العلوم الدينية، كما تطورت، ولو على مستوى أقل، العلوم الطبيعية ايضاً كالرياضيات والطب والجغرافيا التاريخية. كما تم تأليف عدد من البحوث:

الحكام كما هو مألوف، مستقلين نسبياً.

وكان الدور الأكبر في إداراة شؤون البلاد، وتوجيه دفة الحكم يعود إلى مجلس الدولة، الذي ورد في المراجع باسم «كينجيش» او «مشفارات مجلس عالي»، والذي كان يضم زعماء القبائل الرحل، وممثلي كبار رجال الدين المسلمين، السلاطين والـ «أوغلان»، وذوي المناصب العسكرية والمدنية. وكانت القضايا المصيرية المتعلقة بالحرب والسلام، تعالج في المؤتمرات («الكورولتاي» او «الـ «جيرغا»).

ومن المؤسسات الحكومية العليا، ورد في المراجع ذكر «ديواني عالي»، «ديواني مال»، «ديواني مشرف»، «ديواني تواتشي»، «ديواني سركاري خاصة». وكان «ديواني عالي» يُعَدُّ الديوان الاعلى، ويشرف على نشاطات جميع المؤسسات أو الدوائر التابعة للقصر وشؤونها: «ديواني مال» ـ بيت مال الحكومة، أي مصلحة الضرائب، أما «ديواني مشرف» فهو دائرة مباحث مهمة، تزاول مراقبة ادارة الأمور ومنع الاستهتار والتعسف، والتحري والتجسس على بعض افراد الأسرة الحاكمة والمسؤولين. أما «ديواني تواتشي» فهو إدارة عسكرية. وفيما يتعلق بـ «ديواني سركاري خاصة»، فانه ـ كما ورد في قائمة درجات المقامات ـ «يجمع الايرادات من الاراضي الحكومية والمطاحن والمحالّ التجارية التي تدخل ضمن الادارة السامية... ويحصّل منها المصروفات الضرورية التي يتطلبها الخان.

بناءً على المعلومات الواردة في المراجع، كان يخدم في هذه المؤسسات والدوائر الحكومية العليا وغيرها، نقباء (يشرفون على تنظيم الجيش وتجهيزه بالمعدات وتنسيق مواقعه)، صدر (مسؤول عن أحوال أموال الاوقاف)، قاضي (قضاة مدنيون) قاضي عسكر (قضاة عسكريون)، عالم (كبير المفتين)، رئيس (مسؤول عن السلوك الخلقي للموظفين او المأمورين)، ديوان بيت (مسؤول عن الديوان الحكومي)، باروانا تشي (مسؤول عن ايصال البطاقات والقرارات والأوامر السامية إلى اصحابها)، وادخاخ (المسؤول عن النظام العام في البلاد)، ايشيك آغا باشي (رئيس كبار خدم القصر)، ميراخور (كبير سائسي الخيل)،